د . مسعود عبد الله مسعود

فن النثر

خصائصه واتجاهاته

الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE

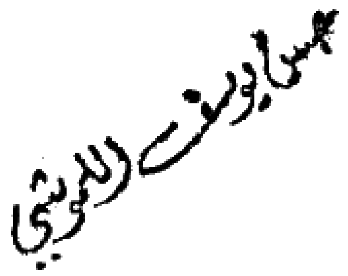
فـن النثر

خصائصه واتجاهاته

د. مسعود عبد الله مسعود

فن النثر
خصائصه واتجاهاته

الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE



د. مسعود عبد الله مسعود

فـن النثر خصائصه واتجاهاته

الطبعة الأولى : 2018 م

رقم الإيداع المحلي: **2018/411**

رقم الإيداع الدولي: **9789959-11-956-1**

دار الكـتـب الـوطـنـيـة بـنغازي - لـيبيـا

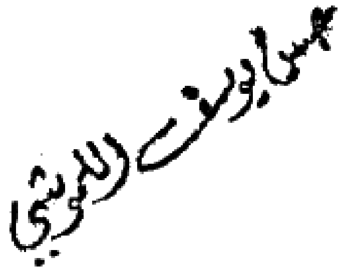
هاتف: **7165022.21821+ - بريد مصور 4843580-21821+**

ص.ب: **75454 - طرابلس Email: almosgb@yahoo.com**

بسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ
عَلَقٍ{2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ
بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

سورة العلق الآيات من 1 - 5



الإهداء

إلى المثابر الذي اجتهد في العلم والتعليم

فنال ثواب الله ومحبة الجميع

إلى الأستاذ الفاضل الدوكالي محمد نصر

أهدي هذا العمل البحثي تحية وعرفانا

الباحث

شكر وتقدير

أتقدّم بجزيل الشكر، وعظيم الامتنان إلى أستاذي المشرف الدكتور الدوكالي محمد نصر الذي رافقني طيلة مدة البحث، ومنحني من وقته وجهده الشيء الكثير في مراجعة كل ما أودعته في هذه الرسالة، وأسدى إلي من الملاحظات والتوجيهات التي أعانتني وستعينني إن شاء الله تعالى في حياتي العلمية المقبلة، كما أتقدم بالشكر إلى جميع العاملين بقسم اللغة العربية بكلية اللغات جامعة طرابلس.

وأخيرا أسأل المولى عز وجل أن يكون هذا البحث بداية المسيرة على الطريق العلمي، وأن يعينني على المضي في طريق التحصيل.

إن الله على كل شيء قدير وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الباحث

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيِّدنا محمد أشرف الأنبياء والمرسلين، الذي وهبه ربّه الحكمة والبيان، وعلّمه ما لم يكن يعلم، فأجرى على لسانه كلّ قول بليغ، وأنزل عليه القرآن الكريم، فكانت رسالته معجزة للخلق أجمعين.

أمَّا بعد:

فنظراً لقيمة العلم وسمو درجته، فقد اخترت موضوع بحث لنيل درجة الإجازة العالية (الماجستير) في الدراسات الأدبية بعنوان (**فن النثر واتجاهاته في القرنين السادس والسابع الهجريين في مصر والشام**) من تاريخ أمتنا العربية، وكان اختياري له لأسباب كثيرة لعل من أهمها الأمور الآتية:

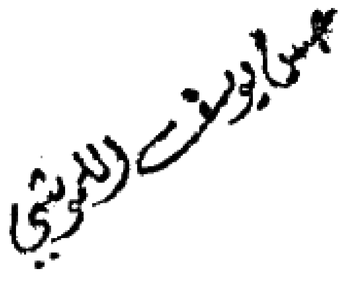
1- أنّ هذين القرنين يمثلان حقبة زمنية من مجد العرب المشرق، فقد شهدا العديد من الحوادث والحروب، وقيام الدويلات المستقلة التي حققت انتصارات عظيمة للأمة العربية، فتحرر بيت المقدس، وهُزم المغول وطُردوا إلى غير رجعة، وكان لفن النثر دور مهم في مواكبة تلك الحوادث والصراعات.

2- أنّ فنّ النثر خلال هذين القرنين لم يعط حقّه من البحث والدراسة إلا في القليل والنادر.

3- إبراز ما لهذا العصر من نتاج ثقافي بالرغم من كثرة الحروب والصراعات التي حدثت في هذه الحقبة، وهذه هي أهم الأسباب التي دفعتني إلى اختيار هذا الموضوع، وأما أهمية الموضوع فتنبع من كون فن النثر يحتّل مكانة عظيمة عند الناس عامة، وقد اقتضى البحث عن موضوع فن النثر واتجاهاته أن يقسّم موضوع البحث إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة.

ففي المقدمة شرح لأهمية الموضوع وأسباب اختياره، وفي الفصل الأول تناولت بالدراسة الوصفية الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية، مبرزاً دور الحركة العلمية وبواعثها، ودور المساجد في نشر العلم والمعرفة، وكذلك نواحي النشاط الثقافي من علوم الدين واللغة العربية وآدابها، وخصّصت الفصل الثاني لاتجاهات النثر، وقدمت له بلمحة عن تطور النثر خلال الفترة السابقة، ثم بالحديث عن الخطابة تعريفها وأسباب تقدمها وأنواعها، وأثر القرآن والسنة فيها، وأردفت ذلك بالحديث عن الرسائل الديوانية وأهم أنواعها، وأوردت نماذج منها، وجاءت بعدها الرسائل الإخوانية مع نماذج منها، وأما الرسائل الأدبية فعرضت نماذج من الرسالة المصرية لأمية بن أبي الصلت، وبينّت فيها ما قاله عن أدباء مصر وشعرائها، كذلك خصصت جزءاً من الفصل الثاني للحكايات والنوادر والطرائف وطيف الخيال مع عرض نماذج لكلّ منها، ثم تحدثت عن النثر الوصفي مثل: كتب التاريخ المسجوع وكتب التراجم والسير وكذلك كتب الرحلات، وأردفت ذلك بالحديث عن المقامات نشأتها وتطورها ونماذج منها، وأشهر المناظرات التي قيلت في هذين القرنين كذلك، وتعرضت للأمثال والحكم، وختمت الفصل الثاني بلمحة عن الألغاز وفوائدها وأهمّيتها

في هذا العصر، وفي الفصل الثالث تناولت بالدراسة أبرز الأعلام في كل من مصر والشام، وخصائص نثر كل منهم كل على حدة، وهم: ابن الصيرفي، الموفق بن الخلال، القاضـي الفاضـل، محي الدين بن عبد الظاهر، الخطيب الحصكفي، والعماد الكاتب، وختمت الفصل الثالث بأهم عوامل ضعف الكتابة، وفي الفصل الرابع تناولت الخصائص الفنية للنثر من حيث: البناء الفني البدء والعرض والختام، وعناية كتّابه بالشكل وزخرفة الألفاظ من سجع وجناس ونحوه، ثم تناولت المضمون من حيث الصور والأخيلة، وختمت الفصل الرابع بالحديث عن المحسنات المعنوية كالطباق والمقابلة والتورية، وفي الخاتمة لخصت ما توصلت إليه من نتائج خلال بحثي.



الفصل الأول
الحياة السياسية والاجتماعية والعقلية والفكرية

أوّلاً، لمحة عن الحياة السياسية:

شهد القرنان السادس والسابع الهجريين في مصر والشام قيام مجموعة من الدويلات الصغيرة المتتابعة، تولّت حكم هذه البلاد تحت سيادة اسمية للعباسيين حتى إنّ هذا العصر أُطلِقَ عليه عصر الدول المتتابعة، وكان قيام هذه الدويلات كالآتي:

1 - الفاطميون:

أسس الفاطميون دولتهم ببلدة رقادة بضواحي القيروان بتونس سنة 296 هـ[1] بمساعدة بعض قبائل البربر مثل: صنهاجة وكتامة، ثم نقلُوا مركز حكمهم إلى مدينة المهدية بتونس، وبعد أنْ ثبَّتوا حكمهم بهذه المنطقة انتقلوا إلى مصر سنة 358 هـ بعد أن فتحها قائدهم جوهر الصقلي، وأنهى حكم الإخشيديين لها، وأسس مدينة القاهرة التي اتخذها الفاطميون فيما بعد عاصمة لهم، كذلك بنى جوهر الصقلي الجامع الأزهر، ثم وجَّه حملة عسكرية إلى بلاد الشام لفتحها سنة 360 هـ، واستطاع فتح بعض أجزائها، كذلك مدّ الفاطميون سلطانهم ليشمل الحجاز واليمن والمناطق المجاورة لهما، واستمرَّ الفاطميون يحكمون هذه المناطق قرابة ثلاثة قرون حكماً وراثياً غير أنّ الضعف أخذ يدب في دولتهم

([1])-ينظر، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 6/ 124.

وبخاصة بعد الحملات الصليبية على مصر والشام، حيث قضى صلاح الدين الأيوبي على آخر سلاطينهم العاضد لدين الله الفاطمي سنة 567 هـ، وأنهى بذلك الحكم الفاطمي لمصر، وأقام مكانها دولته الصلاحية.

2- **السلاجقة:**

السلاجقة قبائل وثنية كانت تعيش متفرِّقة في بلاد ما وراء النهر، استطاع أحد زعمائها ويدعى سلجوق ضم هذه القبائل وتوحيدها منتصف القرن الرابع الهجري، ثم دخلت بعد ذلك في الإسلام، وقد تمكن طغرل بك أحد قادتهم من بسط نفوذه على أواسط آسيا ليشمل العراق، واستطاع القضاء على حكم البويهيين لبغداد سنة 447 هـ، وأمر خطباءها بالدعوة للسلاجقة[1]، وبعد وفاته تولَّى الحكم السلطان ألب أرسلان خلفاً له، وهو الذي عبر بجيوشه نهر الفرات إلى الشام، وبسط نفوذه عليها حتّى حدود الروم شمالاً حيث كانت لهم معارك فاصلة أهمها ملازكرد التي انتصروا فيها على الروم غير أنَّ أحفاده كانوا ضعافاً، فدبّ الضعف إلى دويلتهم فانقسمت إلى ثلاث دويلات صغيرة هي: سلاجقة الشرق وسلاجقة الشام وسلاجقة الروم، ثم زالت هذه الدويلات إثر نشوب الحروب الصليبية.

3- **الزنكيون:**

أصل الزنكيون أتراك كانوا موالين لأمراء الدولة السجلوقية تمكنوا من الوصول إلى سدة الحكم في الشام بعد أن أمَّر ملك شاه قسِيم الدولة آق سنقر

([1])- ينظر، صدر الدين علي الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص 10.

على مدينة حلب والقلعة سنة 486 هـ بموجب مرسوم ملكي منه[1] الذي استقلَّ بحكم الشام فيما بعد هو وأبناؤه، فلمّا توفي قسيم الدولة آق سنقر تولّى ابنه عماد الدين الحكم زنكي، فنشبت بينه وبين الفرنجة حروباً حيث زحف عماد الدين بجيوشه على حصن بارين، وحارب الفرنجة حروباً شديدة، وقاتلهم قتالا عنيفاً[2] حتى انتصر عليهم، ثم واصل زحفه إلى بلدة الرها التي فتحها بقوة السيف إلا أنّه قُتِل بعد ذلك على يد مماليك أبيه ليتولَّى مكانه ابنه نور الدين محمود الحكم الذي وجَّه حملة عسكرية لفتح مصر بقيادة أسد الدين شيركوه، وابن أخيه صلاح الدين الأيُّوبي فكانت مصر من ضمن البلدان التي فتحها نور الدين محمود الذي اتخذ من الحمام الزاجل وسيلة لنقل الأخبار إليه بسرعة حين وقوعها، وبعد وفاته تولَّى حكم الشام ابنه إسماعيل الملَقّب بالملك الصالح، وفي هذه الفترة أرسل صلاح الدين جيوشه لضم الشام إلى حكم الفاطميين، فكان الملك الصالح آخر حكّام الدولة الزنكية.

4- الأيُّوبيون:

ينحدر الأيّوبيون من أصل كردي حيث يقيمون في منطقة دوين، وهي بلدة صغيرة من أعمال أذربيجان، ومنها خرج جدّ الأيوبيين مهاجراً إلى العراق، وخرج معه ولداه نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه، حيث أقام مدّة هناك، ثم التحق بخدمة نور الدين محمود الذي ولّى أسد الدين وابن أخيه صلاح الدين قيادة الجيش، ولمّا احتّل الفرنجة دمياط استنجد الخليفة الفاطمي العاضد لدين

([1])-ينظر، صدر الدين علي الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص 72.

([2])-ينظر، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 8/ 358.

الله بنور الدين محمود الذي أرسل إليه جيشاً يقوده أسد الدين شيركوه، وابن أخيه صلاح الدين، ولمّا وصل الجيش إلى مصر تولّى أسد الدين الوزارة للخليفة العاضد إلاّ أنّه مات بعد فترة قصيرة من تولّيه الوزارة، فتملّكها صلاح الدين الأيوبي وتلقَّب بالملك الناصر، ثم استقلَّ بحكم مصر، وحاول التقرّب إلى العامة فألغى الضرائب، والمكوس التي كانت مفروضة على عامة الشعب، وكذلك أعدّ جيشاً ضخماً، واتّجه به إلى فلسطين لمحاربة الصليبيين الذين كانوا قد تجمَّعوا هناك سنة 583 هـ، فوقعت معركة حطّين الشهيرة التي كان النصر فيها حليف صلاح الدين.

وقد أكثر أحفاد صلاح الدين من المماليك، وبخاصة نجم الدين أيوب الذي ارتقى عرش مصر سنة 537 هـوبعد موته فجأة تولّى ابنه توران شاه الحكم الذي قُتِل على يد مماليك أبيه، لتكون بذلك نهاية الدولة الأيوبية سنة 648 هـ.

5- المماليك:

أواخر حكم الأيوبيون كثُر شراء العبيد من الأتراك وبخاصة أثناء حكم الملك الصالح نجم الدين أيوب، الذي اشترى منهم عدداً كبيراً، وجعل منهم معظم جيشه، وأمّرهم على الأكراد، وجعلهم بطانته والمحيطين به[1] وبموته تولّى ابنه توران شاه الحكم فقتله المماليك واستولوا على الحكم، وبذلك قامت دولة المماليك سنة 648 هـ، وقد ظل المماليك يحكمون مصر والشام فترة طويلة من الزمن في دولتيْن، قامت إحداهما: على أنقاض الأخرى، الأولى تسمّى دولة المماليك البحرية نسبة إلى إقامتهم في جزيرة الروضة على النيل، وهم مماليك

([1])-ينظر، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، 6/ 371.

الملك الصالح نجم الدين أيوب، والثانية المماليك البرجية، وهم مماليك جلبهم أسيادهم المماليك البحرية، وأسكنوهم في أبراج القاهرة، حيث رُبُّوا هناك تربية عسكرية خاصة، وسمّوا بذلك نسبة إلى سكنهم بأبراج القاهرة، وقد ظلَّ مماليك هاتيْن الدولتيْن يديرون شؤون مصر والشام حتى سنة 923 هـ عندما دخل العثمانيون الشام ومصر، فانهوا الحكم المملوكي.

ثانياً، لمحة عن الحياة الاجتماعية:

اختلف المؤرخون في تقسيم فئات المجتمع فذهب ابن خلدون إلى أنَّ الشعب طبقتان فقال: فالسلطان من له رعية، والرعية من لها سلطان[1] ويؤيّده محمود رزق سليم بقوله: " وقد نوّهنا بأنّ البلاد كانت طبقتين متميّزتين حاكمة، ومحكومة"[2] إلاّ أنّني أرى أنّ المجتمع مقسّم إلى الفئات الآتية:

1- **الطبقة الحاكمة:**

الطبقة الحاكمة هي الطبقة العليا في المجتمع، وقد تناوبت الحكم خلال هذين القرنين، خمس دول وقد سبق ذكرها والحديث عنها، حققت العديد من الانتصارات ضد الحملات الصليبية وحملات التتار على الوطن العربي، وبعامة فقد عاشت هذه الطبقة في الغالب حياة ترف وبذخ من ذلك أنّ الوزير الفاطمي بدر الجمالي المتوفى سنة 514 هـ خلّف من الأموال والحلي ما لا يعلم قدره إلا الله سبحانه وتعالى[3]، وقد ساد نظام الإقطاع وبخاصة في عصر الأيوبيين،

([1])-ينظر، ابن خلدون، المقدمة، ص 149.

([2])-عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، 7/ 288.

([3])-ينظر، ابن خلّكان، وفيات الأعيان، 2/ 451.

واستمر هذا النظام سائداً إلى العصر المملوكي، حيث يقوم الأمراء والقادة بالسيطرة على الأراضي الزراعية وعلى فلاحيها الذين أصبحوا عبيداً لهم.

2- علماء المسلمين:

نالت هذه الفئة حظّاً وافراً من التعليم، حيث حصلت على قدر كبير من الثقافة، ففقهت أمور الدين وأحكامه، وحازت بذلك على مكانة مرموقة لدى الطبقة الحاكمة، وانقسمت هذه الفئة إلى قسمين:

تقلَّدت إحداهما الوظائف العامة في الدولة مثل: كتبة الدواوين وأمانات السر، وتولَّت الأخرى التدريس والخطابة والقضاء على الرغم من أنَّ بعضاً منها رفض العمل بالقضاء، وإن كانت من أشرف الوظائف، حيث إنّهم لا يخضعون لأهل الجاه والسلطان[1] لقوله صلى الله عليه وسلم: **(القضاة ثلاثة واحد في الجنة، واثنان في النار)**[2]، وكثيراً ما كان هؤلاء العلماء يندّدون بالباطل من ذلك أنّ أبا محمد عبد العزيز بن عبد السلام المتوفَّى سنة 660 هترك الدعاء على المنبر للسلطان بسبب تحالفه مع الصليبيين، والسماح لهم بدخول دمشق[3]، وذُكر كذلك أنّ الملك الظاهر بيبرس حضر مرة إلى دار القضاء، فقام الحاضرون إجلالاً لقدره إلاّ القاضي فلم يقم له.

([1])-ينظر، ابن خلدون، المقدمة، ص 312.

([2])-شرح مسند أبي حنيفة، 1/ 532.

([3])-ينظر، زين الدين عمر بن الوردي، تتمة المختصر في أخبار البشر، 2/ 308.

3- طوائف الشعب:

يشكّل الفلاحون غالبية سكان مصر، مستقرين في الصعيد والوجه البحري، وحرفتهم الأساسية زراعة الأرض وفلاحتها، وقد حصلت هذه الفئة في بداية العصر الفاطمي على نصيب من الثراء، ورفاهة العيش على الرغم من حقارة هذه المهنة ومذلّتها[1]، ويؤكّد أسامة ابن منقذ مذلّة الذين يحترفون فلاحة الأرض في ذلك الزمان فيما رواه عن والدته التي فضّلت قتل شقيقته حتى لا تراها عند الفلاحين[2]، وحين ساد نظام الإقطاع صار الفلاح قنّاً ملحقاً بالأرض يورَّث مع الإقطاع الذي يعمل فيه لسيده لا يرجو أنْ يعتق بل يظلّ قنّاً مدى حياته، وحياة من ولد له كذلك، وقد أدّى هذا النظام الطبقي إلى خراب القرى، وتشرُّد أبناء الفلاحين، وتحوّلهم إلى قطاع طرق وشياطين، من ظفروا به منفرداً قتلوه، وأخذوا ما كان معه من أموال[3]، وهناك فئة أخرى ربما تكون أحسن حالاً من الفئة السابقة، وهي فئة أرباب الصناعة والمهن الحرة، وغالباً ما كان يعمل بها أهل الحضر الذين يقيمون بالمدن كبيرة كانت، أم صغيرة، فكانوا ميسوري الحال، أصحاب ثراء يحترفون نسج الثياب وحياكتها، واحترف بعض الأهالي صيد الأسماك وبيعها، وربما كانت فئة التجار أحسن حالاً من جميع الفئات الأخرى لنشاط حركة البيع والشراء لتوسَّط مصر والشام دول العالم، فنالت هذه الفئة مكانة طيبة لدى الطبقة الحاكمة بذلك، فهي تمدهم بما يحتاجون إليه من أموال

---

(1)-ينظر، ابن خلدون، المقدمة، ص 312

(2)-ينظر، أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص 125.

(3)-ينظر، المرجع نفسه، ص 27.

زمن الحروب، وكذلك كانوا يقرِضون الدولة بموجب ضمانات من السلطان بل وقد يصادر جزء من أموالهم لصالح الدولة[1].

4- الأعراب:

الأعراب طائفة من البدو مستقلّة في حياتها عن العرب الآخرين، حيث فرضت الطبيعة القاسية على هذه الفئة صعوبة العيش ونكد الحياة، فمعاشها من رعي الماشية وإنتاجها، وقد انتشرت هذه الطائفة من البدو في جماعات سكنت أطراف نهر النيل، وكانت حرفتهم الأساسية الزراعة البعلية، ينتقلون من مكان إلى آخر تبعاً لتوفّر الماء والكلاء لهم ولحيواناتهم.

5- أهل الذِّمة:

أهل الذِّمة هم النصارى واليهود من أهل الكتاب الذين يعيشون مع المسلمين في بلادهم، ويدفعون الجزية المفروضة عليهم لعدم مشاركتهم في الحروب، وقيام المسلمين بها نيابة عنهم، وقد عُومل أهل الذمة في بداية العصر الفاطمي معاملة أهل البلد من المسلمين حتى أصبح منهم من يضاهي الوزراء في مكانتهم، كذلك لاقى أهل الذِّمة معاملة حسنة أيام الدولة الأيوبية، فمن المعروف أنّ السلطان صلاح الدين الأيوبي كان يحبّ الأقباط محبة شديدة، وكانوا هم يبادلونه الشعور نفسه حتى إنّهم وضعوا صوره في كنائسهم[2] غير أنّ أهل الذمة لاقوا بعض التضييق في عهد المماليك، ولاسيما في عهد السلطان الظاهر بيبرس الذي أرسل جيشاً هدَّم كنيسة الناصرة، وأرسل جند آخرين نزلوا بقرية القارة وأخذوا

([1])-ينظر، زين الدين بن الوردي، تتمة المختصر في أخبار البشر، 2/ 331.

([2])-ينظر، قدري قلعجي، صلاح الدين الأيوبي، وقصة الصراع بين الشرق والغرب، ص 201.

أطفالهم أسرى أو كعبيد مماليك، ثم أرسلوهم إلى مصر ليربُّوا هناك، فكان منهم أمراء وجنود[1]، وقد ابتهج أهل الذمة بدخول التتار الشام سنة 658 هـ الذين قتلوا وشرَّدوا أهلها إلا من دخل أماكن محددة خاصة بالنصارى واليهود، فقد أُعْطِيَ الأمان بموجب منشور صادر عن هولاكو قائد المغول، ونتيجة لهذا المنشور تطاول أهل الذمة، فأخذوا بدقِّ النواقيس، وإدخال الخمر إلى المساجد الأمر الذي دعا حاكم مصر إلى إرسال جيشٍ إلى الشام، فأوقعوا بالنصارى واليهود، وهدَّموا كنيسة مريم، وهي من أعظم كنائسهم بها، كذلك مُنعوا من العمل في الدولة، وأُمِروا أن يتزيُوا بزي خاص.

ثالثاً، لمحة عن الحياة العقلية والفكرية

بواعث الحركة العلمية:

شهدت مصر والشام خلال القرنين السادس والسابع الهجريين حركة علمية واسعة شملت مختلف ميادين المعرفة بعد أن خيم عليها الركود أواخر القرن الخامس الهجري برغم الصراع الدائر في تلك الآونة بين العرب والصليبيين من جهة، وبين العرب والتتار القادمين لاحتلال الوطن العربي من جهة أخرى، وقد عبّر الرحالة ابن جبير حين زار مصر والشام في طريقه لأداء فريضة الحج عن إعجابه بكثرة مساجد الإسكندرية بقوله: وهي أكثر بلاد الله مساجد تكون منها الأربعة والخمسة مساجد في موضع[2] كذلك أعجب بدمشق، فتحدث عن نهضتها العلمية، ودُهش من كثرة مساجدها، ودور العلم بها، وفضّلها على

([1])-ينظر، زين الدين بن الوردي، تتمة المختصر في أخبار البشر، 2/ 313.

([2])-رحلة ابن جبير، ص 17.

بلاد المشرق العربي، وطلب من أهل العلم المغاربة قصدها للاغتراف من ينابيع علومها، والنهل من معارفها، بقوله: "ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء، ولاسيما لحفّاظ كتاب الله، والمنتمين للطلب، فمن شاء الفلاح من ناشئة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد[1]".

ويمكن حصر العوامل التي أسهمت في بعث هذه الحركة إلى قسمين: عوامل خارجية، وأخرى داخلية:

أولاً، العوامل الخارجية:

وقوع كثير من البلاد الإسلامية في أيدي المغول:

زحف المغول من أواسط آسيا في سيل جارف اكتسح أمامه البلاد الإسلامية، وقتلوا كثيراً من أهلها بما فيهم العلماء، والأدباء، وواصلوا زحفهم نحو العراق، ودمروا بغداد حاضرة الدولة العباسية، وأزالوا الخلافة العباسية منها، وأتلفوا دور العلم، والمكتبات، فقد أمر هولاكو بإلقاء جميع الكتب التي كانت في دور الخلفاء في نهر دجلة، ثم توجّهوا إلى الشام التي أصبحت مسرحاً للمعارك بين المماليك، والمغول الأمر الذي أدى إلى هجرة عدد كبير من العلماء إلى بلد يأمنون فيه، فلم يجدوا سوى مصر والشام.

ثانياً، ضعف الدولة العربية في الأندلس:

ضعفت الدولة العربية في الأندلس وانقسمت إلى دويلات صغيرة، الأمر سهل على الإسبان القضاء عليها، وقد أدى ذلك إلى فرار عدد كبير من العلماء نحو المشرق العربي، يؤكد ذلك ما قاله ابن جبير بأنه رأى فقيهاً من أهل اشبيلية يعرف

([1])-المرجع نفسه، ص 258.

بالمرادي تصدر للتدريس بجامع دمشق[1]، وقد عمل هؤلاء العلماء المهاجرين مع علماء مصر والشام على إنعاش الروح العلمية فاتجهوا إلى إحياء علوم الدين وعلوم اللغة العربية وآدابها.

العوامل الداخلية:

إنشاء دور العلم، والعناية بالكتب:

أقام الفاطميون عدداً من المساجد لتكون مراكز للعلم لعل أهمها الجامع الأزهر، كذلك أنشؤوا دار العلم، وألحقوا بها خزانة للكتب ومدّرسين تدفع لهم أجور ومرتبات، كذلك كان ديوان الإنشاء في عهده لا يتولاه إلاَّ أجلّ كتّاب البلاغة[2] كما أقام الزنكيون عدداً من المدارس، ودور العلم، فالمعروف عن نور الدين محمود أنّه أوّل من أقام داراً للحديث في هذا العصر[3] كذلك حظي أهل العلم بالعناية والرعاية في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي، فقد اتخذ من كبار الأدباء وزراءه ومستشاريه كالقاضي الفاضل، كذلك خصّص مدرسين لتعليم أبناء الفقراء والأيتام القرآن الكريم، وأكثر من إقامة المساجد حتى قيل أنّها بلغت في الإسكندرية وحدها ما يزيد على ثمانية آلاف مسجد.

2- تشجيع بعض السلاطين، والحكام لأهل العلم والمعرفة:

من جملة تشجيع خلفاء صلاح الدين للعلماء أن الملك المعظم عيسى المتوفى 624 هـ صاحب دمشق شرط لكل من يحفظ المفصل مئة دينار وخلعة، كذلك أعاد المماليك فتح الجامع الأزهر ليقوم بدوره في نشر العلم، والمعرفة إلى جانب المساجد الأخرى.

---

(1)-ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 285.

(2)-القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، 1/ 101.

(3)-عبد القادر النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، 1/ 468.

نواحي الثقافة العامة

شهد هذان القرنان نشاطاً ملحوظاً في نواحي الثقافة العامة، فهما من أخصب عصور الأدب والثقافة، وأكثرها غزارة في التأليف والتصنيف، على الرغم من قلة الدراسات القائمة حول هذه الحقبة الزمنية من تاريخ الأمة العربية، فمن المؤسف أن تهمل آثاره مخطوطة، إذ لا يزال معظمها طي النسيان[1]، وسأتحدّث في هذا المبحث عن أبرز ما أُلِّفَ في العلوم الشرعية، وفي اللغة العربية وآدابها.

أ- علوم الدين:

اعتنى العرب بالعلوم الدينية؛ لأنَّها تتعلَّق بأمور دينهم الإسلامي الحنيف، فأولُوها بالعناية والرعاية، وبخاصة من قبل الحكام والأمراء، الأمر الذي أدى إلى نشاط حركة إحياء علوم الدين، وأولوا القرآن الكريم المنزّل على سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- العناية قراءة وحفظاً وتفسيراً، فمن علماء القراءات أبو القاسم بن فيرة الشاطبي صاحب القصيدة المشهورة بحرز الأماني التي تُعرفُ بالشاطبية، وقد تناولها عدد كبير من العلماء بالشرح والتحليل، ومن علماء القراءات كذلك عبد الرحمن بن إسماعيل بن يوسف المتوفَّى سنة 636 هـ صاحب كتاب (الإعلان).

([1])-ينظر، عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام، ص 139.

وإذا ما انتقلنا إلى العصر المملوكي وجدنا عدداً آخر من علماء القراءات، والتفسير لعل من أبرزهم الشيخ محمد بن أحمد القرطبي نزيل مصر صاحب التفسير المشهور بـ (جامع أحكام القرآن)، وكذلك نجد أحمد بن محمد بن منير الإسكندري المتوفى سنة 683 هالذي صنّف تفسيراً للقرآن الكريم سماه (البحر الكبير في نجب التفاسير[1])، وله مصنَّف آخر هو (الانتصاف من الكشاف) وألَّف محمد بن سليمان بن النقيب المتوفى سنة 698 هـ كذلك تفسيراً للقرآن الكريم سمَّاه (التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفاسير)، ولعل أشهر قراء الشام الشيخ كمال الدين إبراهيم بن فارس التميمي المتوفى سنة 676 هـشيخ قراء دمشق كذلك اعتنى العلماء والحكام بالحديث النبوي الشريف، فالمعروف عن نور الدين محمود شدَّة عنايته بالحديث، وكان لا يترك قراءته حتى وقت الحرب وانشغاله بها[2] وكان يَسمع الحديث، ويُسمِعه طلباً للأجر والثواب من عند الله تعالى[3]، ولعل أشهر علماء الحديث في هذا العصر أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر" إمام أهل الحديث في زمانه، رحل وبالغ في طلب الحديث إلى أنْ جمع ما لم يجمعه غيره، وصنَّف تصانيف كثيرة، وسمع الحديث بأماكن كثيرة يطول ذكرها، حتى بلغ عدة شيوخه الذين أخذ عنهم ثلاث مئة وألف شيخ، وبضع وثمانين امرأة، وحدَّث بأماكن كثيرة، ومن أثاره قصيدة شعرية فيها شرح لأهمية الحديث، والرحلة في طلبه وسماعه من أفواه الرجال؛ لأنَّه أفضل من أخذه من الصحف[4]" كذلك كان صلاح الدين الأيوبي شديد الرغبة في سماع الحديث النبوي الشريف، ولعناية أحفاده بالحديث أقام الملك

([1])-ينظر، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 5/ 180.

([2])-ينظر، عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام، ص 138.

([3])-ينظر، أبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين، 1/ 6.

([4])-ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 4/ 239.

الكامل بن أبي بكر أوَّل دار حديث بمصر، وقرر بها المذاهب الأربعة، ولعل أشهر علماء الفقه شرف الدين أبو سعد عبد الله بن أبي عصرون، فقد كان أفقه أهل زمانه، إليه تنتهي الفتاوي والأحكام، وله باع طويل في علوم الفقه، كذلك صنَّف عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي كتاب (قواعد الأحكام في مصالح الأنام).

أمَّا في العصر المملوكي فقد نشط المذهب الحنفي، وذلك حين جعل السلطان الظاهر بيبرس لكل مذهبٍ قاضياً، وخصص جزءاً من مدرسته لتدريس المذهب المذكور.

ب- علوم اللغة العربية:

اعتنى العرب بلغتهم العربية التي تعد الوسيلة الوحيدة لدراسة علوم القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف فصنَّفوا فيها، وألَّفوا التصانيف الكثيرة في علم اللغة، والنحو، والبلاغة، والعروض فمن ذلك أنّ عليّاً بن جعفر السعدي المتوفَّى سنة 515 هـ أحد أشهر علماء اللغة العربية وعلومها بمصر ألَّف كتاب (الأسماء في اللغة العربية) جمع فيه الأسماء كلها، ومن طريق هذا العالم الجليل اشتهرت في الآفاق رواية معجم الصحاح للجوهري، كذلك اشتهر الشيخ عبد الله بن برّي المقدسي الذي انتهى إليه علم العربية في زمانه، فقد وضع حواشي على كتاب المعرّب من الكلام الأعجمي للجواليقي(1).

وأمَّا في علم النحو فقد صنَّف ابن برّي المار ذكره (جواب المسائل العشر في النحو) كذلك ألّف يحي بن عبد المعطي الفصول الخمسون في النحو، وكذلك ألفية مشهورة عُرفت بألفية ابن معطي كما ألَّف أبو عمرو عثمان بن عمر بن

---

(1)-ينظر، المرجع نفسه، 4/ 283.

الحاجب كتاب (الكافية في النحو)، وأخرى في التصريف تُعرف بـ (الشافية)، وألّف كذلك كتاب (الأمالي النحوية) وهي مجموعة محاضرات أملاها على طلابه بدمشق، وصنَّف كذلك أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد المتوفَّى سنة 643 هـ مؤلّفات نحوية منه (شرح أحاجي الزمخشري)، وشرحيْن للمفصَّل، وله ألغاز بديعة في النحو.

وأمَّا في علوم البلاغة فقد صنّف علي بن ظافر الإزدي كتاب (غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات) ولعل هذا الكتاب هو أوّل كتاب في علوم البلاغة أُلِّف في مصر بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة[1]، كذلك وضع جمال الدين عبد الرحيم بن شيت القرشي كتاب (معالم الكتابة ومغانم الإصابة) خصص فصلاً منه للبلاغة، تحدّث فيه عن الإيجاز، والمساواة، وبعض أنواع علم البديع، وكذلك صنّف ضياء الدين بن الأثير كتاب (المثل الساير في أدب الكاتب والشاعـر) واشتهر كذلك من علماء البديع زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد المتوفَّى سنة 654 هـ المعروف بِابن أبي الإصبع المصري صاحب كتاب (تحرير التحبير) الذي لم يؤلَّف مثله في علم البديع[2]، وألَّف كتاباً آخر في علم البديع سمّاه (بديع القرآن).

وأمَّا في علم العروض والقافية فقد ألَّف عثمان بن عيسى بن منصور البلطي المتوفى 596 هـ كتباً عدة في العروض لعل من أهمّها (الكتاب الكبير) في ثلاث مئة ورقة، ولابن معطي السالف ذكره قصيدة في العروض.

([1])-ينظر، شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات مصر، ص 121.

([2])-ينظر، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 5/ 265.

الفصل الثاني
فن النثر واتجاهاته

لمحة عن تطور فن النثر:

حكم الفاطميون مصر وأجزاء من بلاد الشام أكثر من مئتي عام ازدهر فن النثر خلالها، ونهضت الكتابة نهضة كبيرة في جميع أشكالها بسبب العناية التي يلقاها كتَّاب هذا العصر، ووفرة الأموال التي كانوا يتقاضونها، فقد بلغ راتب صاحب ديوان الإنشاء في السنة الواحدة "ثلاثة آلاف دينار، وله عن كلِّ ما يكتبه من السجلات والعهودات وكتب التقليدات رسوماً يستوفيها من كلِّ شيء بحسبه"[1] الأمر الذي دعا الكتّاب من مختلف البلاد الإسلامية قصد مصر لالتماس العمل بديوان الإنشاء، منهم على سبيل الذكر اسحق بن نصير البغدادي الذي قدِم مصر، وعمل بديوان المُكاتبات والأجوبة والترسل، كذلك كان الفاطميون" يسجّلون كل دقيقة وعظيمة في سجِلٍّ يخرج من الديوان"[2] كذلك حظيت مصر في عهدهم بمكانة مرموقة بين الدول نتيجة للدعاية التي يقومون بها لأنفسهم ولبلادهم.

وقد ازدهر فن النثر، واتسعت مجالاته، وكان للخطابة الحظ الأوفر، وبخاصة الدينية منها التي تُلْقى أيام الجمع والمناسبات الدينية الأخرى، وتنوَّعت الآداب الدينية، وحدث التفنن في الأدعية بالابتهال إلى الله تعالى لتقريب يوم المراد، واتسع كذلك الأدب الصوفي والشعر التعليمي، ونظم قواعد العلم كالنحو

([1])-ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ص 307.

([2])-محمد كامل حسين، في أدب مصر الفاطمية، ص 309.

والفقه وبخاصة شعر الأراجيز[1] ونشط فن الترسل كذلك ولاسيما الرسائل الديوانية الرسمية لكثرة المناشير والمراسيم التي كانت الدولة تقوم بإصدارها لطمأنة الناس أو لإعلان النصر، وبعامة يُعدُّ الأدب في هذا العصر فاطمياً خالصاً؛ لأنَّه يقوم على خدمة الدعوة للفاطميين وذكر معتقداتهم، ويغلب عليه الطابع العقلي، فالكاتب أمام دعاوي ومبادئ يريد أنْ يقيم البراهين على صحتها، ويسوق الأدلّة ليصل بها إلى درجة الإقناع[2].

وقد كثُر في هذا الأدب الاقتباس من القرآن الكريم، والحديث الشريف، وتكلُّف أوجه البلاغة المختلفة، والإسراف في استخدام المحسنات البديعية لفظية ومعنوية، وأما بلاد الشام فقد كان الجزء الجنوبي خاضعاً للخلافة الفاطمية في مصر، وأمَّا الجزء الشمالي فيحكمه أمراء أتراك لا يفهمون شيئاً عن الأدب العربي، ولا يحفلون به، ولا يعيرونه اهتماماً.

وقد تنوعت فنون النثر وأشكاله خلال هذا العصر، فكانت على النحو الآتي:

1 - الخطابة:

الخطابة مفهومها ونشأتها:

أولاً، الخطابة لغةً:

نقرأ في لسان العرب لابن منظور في مادة خطب، الخطبُ: الشأن أو الأمر صغر أو عظم وقيل: هو سبب الأمر يقال: ما خطبك؟ أي ما أمرك؟ وتقول: هذا خطبُ جَللُ، وخطبُ يسيرُ والخطبُ: الأمر الذي تقع فيه المخاطبة، والشأن

([1])-ينظر، عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، 3/ 149.

([2])-ينظر، محمد سعيد الكيلاني، الحروب الصليبية، وأثرها في الأدب العربي، ص 67.

والحال، ومنه قولهم: جَلَّ الخطبُ أي عَظم الأَمَرُ والشأن، والخِطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة، وخطاباً وهما يتخاطبان.

والخُطبة مصدر الخَطِيب، وخَطَبَ الخَاطبُ على المنبر، واختَطب يَخْطِب خَطابة، واسم الكلام الخُطبة، والخُطبة مصدر الخَطِيب، لا يجوز إلاّ على وجه واحد، وهو أنَّ الخُطبة اسم للكلام الذي يتكلم به الخطيب، فيوضع موضع المصدر، فيقال: خطبتُ على المنبر خُطبةً بالضم، وخطبت الفتاة خِطبة بالكسر، ورجل خطيب: حَسَن الخُطبة، وجمع الخطيب: خطباء[1].

ثانياً، الخطبة اصطلاحاً:

أما مفهوم الخطبة عند أهل الأدب والنقد والبلاغة فهي: " الكلام المنثور المسّجع ونحوه، وهي مثل الرسالة التي لها أول وآخر، وهي فن مخاطبة الجمهور الذي يعتمد على الإقناع والاستمالة[2]" ويمكن القول: أنَّ الخطبة هي خطاب يُلقى من فرد إلى جماعة بقصد التأثير فيهم وإقناعهم بأمر من الأمور، وقد احتلت الخطابة في هذا العصر مكانة رفيعة، ولاسيما الدينية منها نتيجة لما اقتضته ظروف العصر من الدعوة إلى الجهاد، وحثّ الناس عليه من أجل الوقوف أمام الحملات الصليبية وهجمات التتار، وقد نشطت الخطابة في هذا العصر نشاطاً ملحوظاً بسبب عوامل عدّة أثَّرت في تقدّمها وازدهارها، وفي ما يلي أهمها:

---

(1)-ينظر، لسان العرب، مادة خطب.

(2)-أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، ص 94.

1- انتشار التعليم: انتشر التعليم خلال هذين القرنين انتشاراً واسعاً نتيجة لكثرة ما شُيّد من مساجد، ومدارس في مختلف أنحاء مصر، والشام، وإسهامها في نشر العلوم والمعارف كما رأينا في ما مرَّ بنا سابقاً.

2- التجاء كثير من الناس إلى الدين الإسلامي باعتباره مخلّصاً لما هم فيه من الصعاب والمشاكل.

3- شعور العرب بالضعف أمام الحملات الصليبية، ورغبة العرب في استنهاض الهمم، والدعوة إلى الجهاد والحثّ عليه، وبذل كل غال في سبيل نصرة الإسلام والأمة العربية.

4- التنافس الشديد بين الخطباء في إلقاء الخطب من ذلك أنّ العماد الأصفهاني قال: "وانتدب الخطباء، وكثُر المترشِّحون للإصابة، المعروفون بالفصاحة، الموصوفون بالحصافة، فما منهم إلاَّ خطب الرتبة، ورتَّب الخطبة، وأنشأ معنى شائقاً، ووشَّى لفظاً رائقاً، وسوّى بالموضع كلاماً لائقاً، وفيهم من عرض عليَّ خطبته، وطلب منّي نصيحته، وتمنَّى أنْ ترجّح فضيلته"[1] وهذا الإعداد الجيّد للخطب الذي أشار إليه العماد الكاتب يدلّ على مدى تنافسهم.

5- الصراع والحرب الدائرة آنذاك: أدى الصراع الدائر في هذا العصر وبخاصة الحروب الصليبية، وهجمات التتار إلى ازدهار فن الخطابة، ذلك أنّ الحرب مذكية للخطابة، فقد تندلع الحرب بين أمتيْن لطمع إحداهما في الأخرى حبّاً للغلبة، وطلباً للشهرة، فتنطلق الألسن داعية إلى وحدة الكلمة، وإلى جمع الشمل، وبذل كلّ غالٍ، ورخيص في سبيل الوطن وعزّته.

([1])-أبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين، 2/ 108.

أنواع الخطابة:

تعددتْ أنواع الخطابة وموضوعاتها وأغراضها عند العرب، ويمكن حصر أنواعها في الآتي:

1 - الخطب الدينية:

تميّزت الخطب الدينية بميزات من أهمها:

أنَّ الخطيب يبدأ خطبته بحمد الله والثناء الجميل عليه وتوحيده، ثم يبدأ في إلقاء خطبته التي تحمل مجموعة من النصائح والعظات لمتلقّيه، ثم يجلس ليستريح قليلاً، يقوم بعدها لإلقاء خطبته الثانية التي عادة ما تكون خلاصة للخطبة الأولى، والصلاة والتسليم على محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، والدعاء لكافة المسلمين والمسلمات، وهذا النوع من الخطب يوجّه عامة الناس إلى طريق الخير، ويبعدهم عن طريق الشر والضلال.

واشتهر جماعة من الخطباء كانوا يعمدون أن تأتي خطبهم مسجوعة، قال العماد الكاتب، وخطب القاضي محيي الدين[1] أربع خطب في أربع جمع كلها من إنشائه، وأودعها سر بلاغة عُنيت بإفشائه[2] افتتح أُولاهم بآيات من الذكر الحكيم ثم قال: "الحمد لله معزّ الإسلام بنصره، ومذلّ الشرك بقهره، ومصرِّف الأمور بأمره، ومديم النعمة بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره، الذي قدَّر الأيام دولاً بعدله، وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأفاء على عباده من ظلّه، وأظهر دينه على الدين كلّه"[3] إلى آخر الخطبة.

([1])-هو أبو المعالي محمد بن علي بن محمد بن يحيى القرشي قاضي دمشق، وهو أوّل من خطب ببيت المقدس بعد فتحه أيام صلاح الدين الأيوبي. ينظر، أبو شامة المقدسي، ذيل الروضتين، ص 32.

([2])-المرجع نفسه، 2/ 110.

([3])-ينظر، أبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين، 2/ 100.

2- **الخطب السياسية:**

الخطب السياسية هي تلك الخطب التي تلقى أمام المؤتمرات الدولية وفي الأندية، وتُعنى بشؤون الدولة ونظمها مثل نظام الحكم والتعليم والزراعة ونحوه، أو بأمور الدولة الخارجية مثل: معاهدات السلم والحرب وما إلى ذلك.

ونجد هذا النوع من الخطب في بعض المعاهدات والوفادات فقد كان من التقاليد المتبعة تبادل الوفادات بين الملوك فيما يتصل بشؤون بلادهم، واختيار بعض الخطباء في إعداد رسلهم، ممن يحسنون مخاطبة الملوك والأمراء، ويجيدون الخطابة بين أيديهم، ولعل هذا كان أحد الأسباب التي أدَّت إلى نشاط فن الخطابة في ذلك الزمان، ولعل خطب الرسل، والوفادات حينذاك كانت ضرباً من الخطب السياسية التي تدور عادة حول شؤون الدولتين، ومصالح البلدين[1]، وقد أرسل التتار سنة 698 هإلى الناصر قلاوون كمال الدين بهاء الدين قاضي الموصل، وخطيبها في وفد منه، ومن تركي، وآخر أعجمي.

قال أبو المحاسن يصف الاحتفال بمقدمهم في قصر السلطان: "وبعد العشاء الأخير أوقدوا الشموع نحواً من ألف شمعة، ثم أظهروا زينة عظيمة بالقصر، ثم أحضروا الرسل، وحضر القاضي بجملتهم وعلى رأسه طرحة، فقام وخطب خطبة بليغة وجيزة، وذكر آيات كثيرة في معنى الصلح، واتفاق الكلمة، ورغّب فيه، ثم دعا للملكيْن، ودفع إلى الناصر رسالة سلطانه محمود غازان"[2] وردّ الناصر قلاوون على محمود غازان بأن أرسل إليه وفداً فيه شمس الدين بن الجوزي خطيب جامع ابن طولون فاعتذر ابن الجوزي، فعيَّن مكانه القاضي عماد الدين السكري خطيب جامع الحكم.

---

(1)-محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، 6/ 61.

(2)-ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، 8/ 135.

3- **الخطب الحربية:**

وهي الخطب التي تُلقى عادة في ساحات القتال، أو قُبيل الحرب لمواجهة أعدائهم من الصليبيين والتتار، وكانت هذه الخطب تحرَض المقاتلين على القتال، وترفع من عزيمتهم، وتشحذ همتهم، وتحفّزهم على القتال ببسالة وشجاعة، وترفع من عزيمة العرب وتذكر بأمجادهم.

وقد نشطت هذه الخطب نتيجة الصراع الدائر في المنطقة بين العرب من جهة، والتتار والصليبيين من جهة أخرى، الأمر الذي استدعى إثارة الحمية في قلوب الجند، وإعدادهم للحرب، وقد امتازت هذه الخطب "بالإيجاز، والبعد عن التكلّف والسجع، وغير ذلك من الزخارف الأسلوبية المعروفة في هذا النوع من الخطب الحماسية، ويظهر أنَّ الظروف الطارئة، والحوادث المفاجئة كانت تستدعي إنشاء الخطب الحربية، وارتجالها لتلبِّي الأغراض التي أنشئت من أجلها، والدواعي التي قيلت خلالها"[1].

ومن الخطب الحربية في هذا العصر ما ذكره بهاء الدين بن شداد أنّ صلاح الدين الأيوبي أمر جنده بالانتقال إلى موضع يقال له: الخرّوبة، وكان من جملتهم، فخطبهم قائلاً: " بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، اعلموا أنّ هذا عدوّ الله وعدوّنا، وقد وطئ أرض الإسلام، وقد لاحت لوائح النصر عليه إنْ شاء الله تعالى، وقد بقيَ هذا الجمع اليسير، ولا بد من الاهتمام بقلعه، والله قد أوجب علينا ذلك، وأنتم تعلمون أنَّ هذه عساكرنا، وليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل، وهو واصل، وهذا العدو إنْ بقِيَ، وطال أمره إلى أنْ

(1)-عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام، ص 808.

ينفتح البحر جاءه مدد عظيم، والرأي كل الرأي عندي مناجزته، فليخبرنا كلُّ منكم بما عنده في ذلك"[1].

4- **الخطب الاجتماعية:**

يعرض هذا النوع من الخطب لحل معضلة من معضلات المجتمع، فيبرز العيوب، وأسبابها، وكيفية معالجتها، ومنها الخطب التي تقال للإصلاح بين الناس، ومنها كذلك الخطب التي تلقى في بعض المناسبات مثل موت خليفة وتولِّي آخر مكانه، ومنها كذلك خطب المصاهرة أو الزواج، وهذه الخطب عادة تُلقى عند الشروع في الزواج، وتصدر من خطيب ينوب عن العريس، أو عبارة عن الردود التي يلقيها والد الفتاة أو وكيلها لأهل العريس، وتكون في شكل خطبة قصيرة يوضح من خلالها الطرفان جوانب هذا الحدث، ويقوم كلّ من الخطيبين بالتعريف بنفسه وأهله، ونسب العروس أو العريس، وكل ما تحمله هذه الخطبة من موافقة، أو رفض، وظهرت في هذا العصر كذلك بعض الخطب التي كان العلماء والفقهاء يفتتحون بها مواسم الدراسة في المساجد، أو في المدارس التي يسند إليهم التدريس بها، ومن هذه الخطب نقتبس النص الآتي لأحمد بن محمد بن هبة الله الأرمنتي من خطبة ألقاها أثناء افتتاح مدرسة قال واصفاً افتتاحها: " ومعلماً للعلم بما قضت السعادة من الأزل ببنائه، وعِلماً تتزيّن به الطلبة جادت يد الدهر على أبنائه، ألاَ وهي هذه المدرسة الشريفة، مواقعها الشريفة، مطالعها الكريمة، منافعها العلمية"[2].

([1])-المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

([2])-الأدفوي، الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، ص 140.

أثر القرآن الكريم والسُّنة النبوية في الخطابة

تأثَّرت الخطابة العربية منذ ظهور الإسلام بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فاقتبست منهما أحكامها، وبنت عليهما أوامرها ونواهيها يقول أبو عثمان بحر الجاحظ: " إنَّ خطباء السلف الطيب، وأهل البيان العربي من التابعين بإحسان ما زالوا يسمّون الخطبة التي لم تبدأ بالتحميد، وتستفتح بالتمجيد بالبتراء، ويسمّون التي لم توشّح بالقرآن وتزين بالصلاة على النبي الشوهاء"(1)، ويقول عمران بن حطان خطيب من خطباء الخوارج: " إنّي مررت ببعض المجالس فسمعت رجلاً يقول: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن"(2) ويقول الجاحظ في موضع آخر من كتابه البيان والتبيين: "وكانوا يستحسنون أن يكون في كلام الخطيب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع آي من القرآن، فإنَّ ذلك مما يورِّث الكلام البهاء، والوقار، والرّقة، وسلس الموقع"(3) لذلك نرى أنّ خطباء هذا العصر يبدؤون خطبهم بحمد الله، والثناء عليه، وبذكر آيات من القرآن الكريم بغرض التأثير في نفوس المتلقِّين، وكانت تختار لذلك الآيات ذات المعاني المتقاربة مع موضوع الخطبة كمدخل سهل إلى نفوس المتلقين لما يريد الخطيب أن يصبه في الأذان(4) لذلك فالسمة

(1)-الجاحظ، البيان والتبيين، 2: 6.

(2)-المرجع نفسه، 1/ 118.

(3)-المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

(4)-محمد زغلول سلام، الأدب العربي في العصر الأيوبي، ص 196.

الغالبة على خطب هذا العصر أنّ معظمها يبدأ بحمد الله، والثناء عليه والصلاة، والسلام على رسول الإسلام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، واقتباس آيات من القرآن الكريم، وتضمينها في كلامهم، وكان هذا الاقتباس والتضمين يأتي على وجهين:

أ- الوجه الأوَّل:

إيراد الآيات القرآنية بصيغتها نصّاً ولفظاً، ووضعها في المكان الملائم لها من الخطبة، ويعمد الخطباء إلى ذلك؛ لأنّهم يتذوّقون بلاغة القرآن الكريم وحلاوته، وكذلك يجدون في الآيات المقتبسة تعبيراً صادقاً لما يريدون قوله.

وفي ما يلي نعرض جزءاً من خطبة ألقاها محيي الدين بن زكي الدين بالمسجد الأقصى بعد تطهيره من الصليبيين كأنموذج لتأثر خطب هذا العصر بالقرآن الكريم، فقال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(1) ﴿الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ ﴾(2) ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾(3) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا(1) قَيِّماً لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً (2) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً(3) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً(4) مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ

(1)-سورة الأنعام، الآية 45.

(2)-سورة الأنعام، الآية 1.

(3)-سورة الإسراء، الآية 111.

كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلا كَذِباً ﴾(1) وهكذا يستمر الخطيب في خطبته مستشهداً بآيات من القرآن الكريم، فيقول: "أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، الواحد الأحد، الفرد الصمد الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾(2) شهادة من طهَّر قلبه، وأرضى به ربَّه، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، رافع الشرك، وداحض الإفك ﴿الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾(3) إلى هذا المسجد الأقصى، وعرج به منه إلى السماوات العُلا إلى ﴿سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى{14} عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى{15} إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى{16} مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾(4) وهكذا يستمر الخطيب على هذا النحو من الاقتباس من القرآن الكريم إلى آخر خطبته، وهي خطبة طويلة.

ب- الوجه الثاني

إيراد الآيات القرآنية بصيغتها:

كان بعض خطباء هذا العصر يستمدون من القرآن الكريم بعض المعاني القرآنية يجرونها على ألسنتهم كي يفخِّموا بها أقوالهم ويجنِّبوا نفوس سامعيهم، أو غير عامدين أن يقتبسونها، وإنما جرت على ألسنتهم؛ لأنهم حفِظوا كتاب الله، وفهموا معنى ما حفظوا، وتأثروا بالقرآن الكريم، فاستقر ذلك في نفوسهم، ومن النماذج التي وردت فيها الآيات بالمعنى دون إيراد الآيات بنصها خطبة ابن

(1)-سورة الكهف، الآية 5.

(2)-سورة الإخلاص، الآيتان 3، 4.

(3)-سورة الإسراء، الآية 1.

(4)-سورة النجم، الآيات 14- 17.

الزكي التي يقول فيها: " الجهاد الجهاد، فهو أفضل عباداتكم وأشرف عاداتكم، انصروا الله ينصركم[1] اذكروا أيام الله يذكركم[2] اشكروا الله يزدكم ويشـــكركم[3] جدّوا في حسم الداء، وقطع شأفة الأعداء، وتطهير بقية الأرض التي أغضبت الله ورسوله، واقطعوا فروع الكفر واجتثّوا أصوله"[4].

افتتاح الخطب:

استمر افتتاح الخطب على نفس ما كانت عليه في عصر صدر الإسلام، فأكثر الخطب يفتتح بحمد الله والثناء عليه، وبالصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أجزاء الخطبة:

أمّا أجزاء الخطبة فتتكون من الآتي:

1 - المقدمة:

المقدمة هي أوّل ما يطرق الأسماع من الخطبة، وتعطي توضيحاً لأهمية موضوعها وبيان قيمتها، وكذلك تتخذ وسيلة ليسود الهدوء المكان " فالمقدمة من الخطبة كالمطلع من القصيدة، وكالافتتاح في الموسيقى، كل منها يمهّد لما بعده، ويعدّ السامعين إلى الإصغاء"[5].

---

(1)-أخذه من قوله تعالى: ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ سورة محمد، الآية 7.

(2)-أخذه من قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُواْ اللهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ ﴾ سورة الأنفال، الآية 45.

(3)-أخذه من قوله تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ سورة إبراهيم، الآية 7.

(4)-أبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين، 2/ 111.

(5)-أحمد الحوفي، فن الخطابة، ص 120.

2- **العرض:**

يعرض الخطيب موضوع خطبته متسلسلاً حتى يصل إلى النتيجة التي يريدها من خطبته بانياً أسلوبه على السهولة، والوضوح؛ لأنَّه أساس نجاح الخطيب في خطبه، مستشهداً على صحة ما يقول بالأدلة والبراهين.

3- **الخاتمة:**

الخاتمة تختلف حسب نوع الخطبة، فالخطب الدينية عادة ما تختم بالدعاء لكافة المسلمين والمسلمات والاستغفار لهم، أو الدعاء للسلطان، وأما في الخطب الأخرى عادة ما تكون الخاتمة تقريراً دالاً على جوهر القضية التي يريد الخطيب إثباتها من إشارات وتلميحات إلاَّ أنَّ بعض الخطباء دأبوا في نهاية خطبهم على إيجاز ما سبق أنْ ألمّوا به[1].

4- **الأسلوب:**

يتسم الأسلوب في هذا العصر بالإسراف في الصناعة اللفظية، وبخاصة التزام السجع في نهاية فواصل الجمل، وكثرة الاقتباس من القرآن الكريم، وتكلُّف أوجه البلاغة، وبخاصة السجع والجناس حيث كان هذا الاتجاه هو السائد في ذلك الزمن الغابر، وسأعرضُ أنموذجين من خطب هذا العصر لبيان مدى الإسراف في الصنعة اللفظية والمعنوية.

الأولى للخطيب القاضي محيي الدين بن زكي الدين التي ألقاها بمناسبة تحرير بيت المقدس من الصليبيين قال فيها: " القاهر فوق عباده فلا يمانع، والظاهر

(1)-إيليا حاوي، فن الخطابة، ص 21.

على خليقته فلا ينازع، والآمر بما شاء فلا يراجع، والحاكم بما يريد فلا يدافع، أحمده على إظفاره وإظهاره، وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره، وتطهيره بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره، حمد من استشعر الحمد باطن سرّه، وظاهر جهاره"[1]، والثانية لخطيب آخر في افتتاح مدرسة قال فيها: " فأسست على تقوى من الله ورضوانه، فجانبتها الشوائب وعدتها، ونثرت على وتيرتها جواهر الكتاب والسنة، فجلتها لِما حلتها، وكستها العزائم السابقة والهمم الشاهقة حلل المحاسن والحسنات وما وكستها، فأصبحت بحمد الله كعبة تنتابها وفود الاستفادة زيارة وعكوفاً"[2].

(1)-أبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين، 2/ 110.

(2)-الأدفوي، الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، ص 140.

الرسائل

الرسائل جمع رسالة، وهي قطعة أدبية نثرية يرتِّبها كاتب ويضمِّنها موضوعاً ما، ويرسلها إلى شخص آخر أو قد تكون من السلطان إلى أفراد شعبه عامة، وأحياناً ينشئها الأديب ليقرأها أغلب الناس، وقد انقسمت الرسائل إلى أنواع ثلاثة هي: رسائل ديوانية، رسائل إخوانية، ورسائل أدبية.

أولاً، الرسائل الديوانية:

تصدر الرسائل الديوانية عن ديوان الإنشاء (الرسائل) الذي عرفته مصر منذ زمن السلطان أحمد ابن طولون الذي أقام أوَّل نواة لديوان المكاتبات بمصر، وجعل أحمد بن مودود المعروف بابن عبد كان على رأس جماعة من الكتَّاب المهرة، فكان بذلك مبدأ الكتّاب المشهورين.

ولمَّا قامت الدولة الإخشيدية كبُر ديوان الإنشاء واتّسع، وكثُر كتَّابه، ولكن لم يصل أحد إلى المكانة التي احتلها ابن عبد كان، وبدخول الفاطميين مصر في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ازدادت أهمية ديوان الإنشاء لاتّساع رقعة ملكهم، من أقاصي المغرب إلى نهر الفرات شرقاً وكذلك امتداده إلى الحجاز واليمن، يقول القلقشندي: " لمَّا وليَ الفاطميون الديار المصرية صرفوا مزيد عنايتهم بديوان الإنشاء وكتَّابه، فارتفع بهم قدره، وشاع في الآفاق ذكره"[1]

[1]-صبح الأعشى، 1، 96.

حيث كان لا يتولاه إلاّ أجلّ كتّاب البلاغة، ويخاطب بالشيخ الأجل، وارتفع بذلك شأن صاحب الديوان وسمت درجته وقدره.

ولمّا انتقل الحكم إلى الأيوبيين سنة 567 هظلّ لديوان الإنشاء مكانته العظيمة، فتولاه أبوعلي عبد الرحيم بن علي بن الحسن المعروف بالقاضي الفاضل مع قيامه على وزارته وأشرك معه العماد الكاتب في الكتابة بديوان الإنشاء، وأصبح صاحب الديوان يسمّى كاتب الدست، وكاتب الدرج[1].

وبعد وصول المماليك إلى سدة الحكم اتسع عمل ديوان الإنشاء، وازدادت أهميته لاتساع رقعة السلطنة، وكثرة الحروب والمشاكل الأمر الذي استوجب كثرة الرسائل والمراسيم، وكذلك الحاجة الماسة إلى ضبط شؤون الدولة وصار له النفوذ والسلطان في أكثر فروع الحكومة[2] وتأتي أهمية ديوان الإنشاء من إسهامه في الحفاظ على الأدب العربي، وفي إحياء اللغة العربية، وازدهارها فقد كان الشعراء، والأدباء ولاسيما أعلامهم يتنافسون في نيل منصب كاتب السر، والوصول إلى تلك الرتبة العالية[3]، وعلى ذلك فالرسائل الديوانية هي:

كلّ الرسائل، والمخاطبات، والوثائق الصادرة عن ديوان السلطان، وتعنى بشؤون الدولة وقضاياها، وضبط أمورها الداخلية والخارجية، وتأخذ صيغة الطابع الرسمي، ومنها كذلك ما يدخل في ترتيب نظام الحكم وشؤون الإدارة، ومراسلة الأمصار والدول، وقد تفنن كتّاب هذه الرسائل فأصبحوا" يعرضون فيها ألواناً شتى من اللعب الفني ربما لا تتحقق في الشعر المتكلّف، وصارت

([1])-شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات مصر، ص 402.

([2])-ينظر، محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية بعد سقوط بغداد، ص 74.

([3])-ينظر، محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية بعد سقوط بغداد، ص 74.

الكتابة أشق في كثير من الأحيان من الشعر، وصار الكتَّاب يتيهون على الشعراء"[1]، وقد تأثرت تلك الرسائل بالقرآن الكريم، إذ كثيراً ما كانت تفتتح بآيات من الذكر الحكيم والاقتباس منه.

وقد ازدهر فن الرسائل الديوانية ازدهاراً كبيراً في هذا العصر بسبب الحروب الصليبية التي حتّمت على سلاطين العرب المسلمين تبادل الرسائل المختلفة لطلب النجدة، أو البشارة بفتح حصن من الحصون، وكذلك تمثّل لغة التخاطب بين الحكام، وعمّالهم ونوابهم؛ لأنَّ الأحداث الكبرى التي مرَّت على البلاد استدعت تطور النثر الديواني، وتعددت أغراضه، وفيما يلي أهمها:

1- **التقاليد:**

وهي رسائل ديوانية توجّه إلى من يتم تعيينه في وظيفة من الوظائف العليا في الدولة على لسان السلطان وبقلم رئيس الديوان، وهي أشبه ما تكون بالرسائل التي تصدر لمن يتم تعيينه في إحدى الوظائف العليا في العصر الحاضر، وهذا نص من رسالة تقليد جاء فيها قوله: "قد علمه أمير المؤمنين فأدنى مجلسه من سمائه، وأنسه على وحدة الانفراد بحفل نعمائه، ورفعه حتى ودّت الشمس لو كانت من أترابه، والقمر لو كان من ندمائه"[2].

2- **التوقيعات:**

التوقيعات عبارة عن تعليقات يردّ بها الأمراء والقادة على الشكاوى التي ترفع إليهم، وتمتاز هذه التوقيعات باليسر والسهولة والإيجاز، منها هذا التوقيع

([1])-محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص 197.

([2])-ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، 1/ 136.

الذي كتبه صلاح الدين الأيوبي بخط يده عن رسالة كتبها القاضي الفاضل يستأذنه فيها السماح له بأداء فريضة الحج، فكتب على خيرة الله تعالى، يا ليتني كنت معكم فأفوز فوزاً عظيماً[1].

3- العهود والمواثيق:

وهذا النوع من الرسائل يصدر لمن يتم ترشيحه ولِيّاً للخلافة بعد الخليفة، ومنها كذلك وصايا الاستخلاف التي يضمِّنها الحكام أواخر مدة حكمهم الآراء والنصائح التي يودّون أن يسير على هديها من يتولُّون قيادة البلاد بعدهم، ومنها كذلك رسائل الأمان التي تعطى لثائر، أو خارج عن الدولة، أو إزالة أسباب خلاف مع دولة مجاورة، وتعرف حينئذٍ بعهود الأمان.

4- السجلات والمناشير:

نشطت هذه الأنواع من النثر الديواني، بسبب الصراع الدائر بين العرب والصليبيين من جهة وبين العرب والتتار من جهة أخرى، ومن تلك ما يحمل طيّه بشارة فتح أو نصر حيث يسرع السلطان إلى إبلاغ أنباء الانتصارات والفتوحات إلى شعبه بعامة، واصفاً تلك الانتصارات على الأعداء، من ذلك نص بشارة من إنشاء ابن أبي عصرون عندما فتح نور الدين محمود مصر قال فيه: " أصدرنا هذه المكاتبة إلى جميع البلاد الإسلامية عامة بفتح الله على أيدينا رتاجه، وأوضح لنا منهاجه، وهو ما اعتمدناه من إقامة الدعوة العباسية بجميع المدن والبلاد والأقطار والأمصار المصرية والإسكندرية ومصر والقاهرة، وسائر

([1])-ينظر، أبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين، 2/ 7.

الأطراف الدانية والقاصية والبادية والحاضرة"[1] وعندما فُتِح بيت المقدس كان العماد الكاتب بصحبة صلاح الدين الأيوبي ببلاد الشام، فكان العماد يكتب بقلمه على لسانه إلى مصر واليمن، واصفاً الانتصارات التي حققها العرب على الصليبيين، وتحرير بيت المقدس وتطهيره من براثنهم.

5- **الوصف:**

تعددت أغراض الرسائل الديوانية فشملت أغراضاً مختلفة كوصف الطبيعة، ووصف معركة من المعارك، ووصف فتح من الفتوح من ذلك هذا الجزء الذي أقتطفته من كتاب في وصف معركة الكرك، وهو من إنشاء القاضي الفاضل، قال فيه: " وأمّا الكرك فكفّات المنجنيقات عليه متظافرة، وحجارتها على من فيه حاجرة، وقد جُدعت أنُوف الأبرجة، وأسبلت قناع الستائر وجوهها المتبرجة، وكل جوانبه وعرة المرتقى، صعبة المحتظى، والسلطان يستعذب المشقّات التي تتفادى منها الهمم، ويباشر حجرات الشتاء الكالح بوجهه المبتسم"[2] وله من كتاب آخر قوله: " عذاب الله بالحصن وأهله واقع ماله من دافع، وأنَّ دليل النصر عليه قد ظهر وما دونه مانع"[3].

6- **أغراض أخرى:**

كذلك كُتِبت الرسائل الديوانية في أغراض أخرى منها الحثّ على الجهاد، والترغيب فيه، أو الاعتذار عن السلطان عندما يُهزم في معركة من المعارك، أو

([1])-أبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين، 1/ 197.

([2])-المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

([3])-المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

عند حصول كارثة من الكوارث الطبيعية، مثل العواصف والزلازل وما شابهها، ومنها كذلك الرسائل الحربية التي توجّه إلى قادة الجيوش، وغيرها من الأغراض.

ثانياً، الرسائل الإخوانية:

الرسائل الإخوانية هي رسائل شخصية يتم تبادلها بين الإخوان والأصدقاء والأحباب معبرة عن عواطفهم، وأحاسيسهم، ومشاعرهم بما تحمل فيها من مشاعر الود والإخاء والشوق واللوعة، أو تحمل تهنئة أو تعزية في لغة مصقولة، جزلة متضمّنة معاني طريفةٍ وصيغاً بديعة، وقد اتسعت الرسائل الإخوانية فشملت أغراضاً مختلفة احتفظت المصادر الأدبية بطائفة لنا منها من ذلك انعقدت صداقة بين الشاعر ظافر الحدّاد، وبين أميّة بن أبي الصلت الشاعر الأندلسي نزيل مصر، وكان الأخير قد ترك مصر عائداً إلى تونس، ولمّا تصله رسالة من صديقه ظافر أرسل إليه يعاتبه قائلاً: " فضضت الكتاب عن رسالته التي يبهج قشيبها، ويضوع طيبها، ولا ينزف قليبها، فخلتُ أنّي اختال أي اختيال في حلل الشباب، وأذكر الأحباب، وأرشف الرضاب من الثنايا العذاب بعد الصد والاجتناب

ذكرتُ به عهداً كأنْ لم أفزْ به وعيشاً كأنّي كنت أقطعه وثباً

ثم نزّهتُ ناظري وجلوتُ خاطري ببديع ما تضمَّنه الكتاب من العتاب حتى وددت أنّي كل يوم أجدّد ذنباً يوجب منه عتباً كي أقطع منه مثل تلك الأزهار، وأجني منه مثل تلك الأثمار، فما أخصبها رياضاً وأعذبها حياضاً، وأشرفها أجساماً وأعراضاً"[1].

([1])-ينظر، ظافر الحداد، ديوانه، ص 363.

ومن رسالة للقاضي الفاضل يصف فيها مدينة دمشق التي يسكنها أحد أصدقائه قوله: "إنّي وصلت إلى دمشق المحروسة حين شرّد بردها وورّد وردها، وأخضرّ نباتها، وحسن نعتها وصفا ماؤها، وصنف رداؤها، وتغنّت أطيارها وتبسّمت أزهارها، وافتر زهر أقحوانها، فحكى ثغور غزلانها ومالت قضب بانها، فانثنت تتثنّى ولدانها، فلمّا قربتُ من بساتينها، ولاح لي فسيح ميادينها، وتوسّطتُ جنّة واديها رأيتُ ما أودعه الله العظيم فيها سمعتُ عند ذلك حماماً يغرِّد، وهزاراً ينشد ويردد، وقمرياً ينوح، وبلبلاً بأشجانه يبوح"[1] وفي العصر المملوكي نجد الأدباء من كتّاب، وشعراء يتبادلون الرسائل الشخصية فيما بينهم، من ذلك رسالة طويلة بعث بها محيي الدين بن عبد الظاهر إلى الشاعر الحسن بن شاور الكناني المعروف بابن النقيب المتوفى سنة 653 هـ حين بلغه أنَّ شخصاً عابه في مجلس الشاعر المذكور بسبب التواضع في الجلوس سمّاها التواضع، وصوّر فيها حملته على الشخص الذي عابه جاء في مقدّمتها قوله: " إنّ فلاناً غضّ منِّي كلّ غض، وأنّه عبث بي عبث الأيام بالمنى، وأنّه ردّني إلى أرذل العمر في الاطراح، وغلّق في وجه تنجُّحي أبواب النجاح، وزعم أنّ إجادتي غير ملجم، وأنّ ميلاد مجدي حديث، وسبب سعدي رثيث، وأنّ جوانح إجادتي جريحة، وقرائح ارتجالي قريحة، وأنّ صدور المجالس تنكر أقدامي، وبطون الطروس لا تلقح بأقلامي، وأنّي لأُعدُّ في جملة الكتّاب، وإذا دخلوا من أبواب متفرّقة للتكريم لا أدخل معهم في باب، والذي أقوله لهم مخاطباً، وأُومي به مجاوباً ما كل الأفاعي تعبث بها الأنامل، ولا كل المراعي تنصب بها الحبائل"[2] وهكذا يمضي

([1])-شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات مصر، ص 426.

([2])-الصفدي، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، ص 402.

الكاتب في رسالته على هذا النحو بأسلوبه الجميل المتأنّق المسجوع، ويكثر في رسالته من استخدام الجناس، والطباق كذلك وغيرها من الزخارف اللفظية والمعنوية.

ثالثاً، الرسائل الأدبية:

الرسائل الأدبية هي تلك الرسائل التي لا توجه إلى شخص بذاته، وإنّما يدبِّجها الكتَّاب والأدباء ليقرأها الناس بعامة، وهي تشبه إلى حد ما المقالة في العصر الحاضر، وتتخذ من خصال النفس البشرية موضوعاً لها[1]، وهي مرحلة متطوّرة عن الرسائل الإخوانية يعبر من خلالها الأديب عن إخلاصه وحبّه الشديد لأخ له، أو صديق إلا أنّ منشي الرسالة الأدبية يلجأ إلى التعبير عن الإخلاص والحب بعامة، وغالباً ما تبدأ بالحديث إلى الشخص المخاطب والدعاء له، ثم تدخل إلى الموضوع الذي أنشئت الرسالة من أجله، فإذا حُذفت مقّدمة الرسالة بدت الرسالة مقالاً سويّاً، وأمّا أسلوبها فيغلب عليه طابع ذلك العصر من حيث اختيار السجع أداة، وصورة يبثُّ من خلال الكتّاب والأدباء أقوالهم مثقلة بالزخارف اللفظية والمحسنات البديعية.

ومن أهم الرسائل الأدبية في هذه الآونة الرسالة المصرية التي وضعها أميّة بن أبي الصلت الأندلسي المتوفّى سنة 529 هـ وهو من أهل دانية بالأندلس حين توجّه إلى مصر أيّام الخليفة المستنصر بالله الفاطمي سنة 489 هـ، ومعه والدته باحثاً عن سعة في العيش، فدخل مصر كما يقول: أيّام أفضلها فلم ينل منه

(1)-مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص 178.

أفضالاً، وقصده للنيْل فلم يجد لديه نوالاً[1]، فعاد ابن أبي الصلت إلى تونس سنة 506 هـ، واستعاد صلته بأبي طاهر يحي بن تميم بن باديس، وصنّف له هذه الرسالة وصف فيها ما عاينه وما عاناه أثناء رحلته إلى مصر وعودته منها، وكان أديباً فاضلاً حكيماً له مصنفات كثيرة منها الرسالة المصرية التي كانت تجمع موضوعات متعددة تدور حول مصر وأهلها، وانطباعه غير السار عنها بسبب سجنه بها، فالرسالة في معظمها تحمل طابع الحملة على البلد وأهله، وإن لم يستطع أن ينكر بعض صور الجمال فيه كالنيل، ومناظر النُّزه في الروضات[2].

وقد تناول ابن أبي الصلت في رسالته هذه بالدراسة والوصف الديار المصرية وموقعها من المعمورة، ووصف النيل وجريانه، كذلك تحدّث عن مواطن الجمال فيها واصفاً بركة الحبش وبساطها الأخضر بالشعر والنثر، كما تحدّث عن سكان مصر، واختلاطهم بغيرهم من روم وحبش وعرب وبربر وأهمّ عواصمها، وتحدّث عن أطبائها وسوَّى بينهم وبين المنجّمين، وختم رسالته بالحديث عن بعض أدبائها، وشعرائها قائلاً: " وأمّا الآن فإنّي على الشرط من لقيته من أدبائها وظرفائها وفضلائها في الأدب وعلمائها وأوّلهم بالتقديم وأحقّهم بالحظ الأوفر من التعظيم القاضي أبو الحسن علي بن النضر المعروف بالأديب ذو الأدب الجم والعلم الواسع والفضل البارع، وله في ساير أجزاء الحكمة اليد الطولى والرتبة الأولى، وكان قد ورد الفسطاط يلتمس من وزيرها الملّقب بالأفضل تصرفاً وخدمة، فخاب فيه أمله وضاع رجاؤه وأخفقت سعته، فقال من قصيدة يعاتب فيها الزمان ويشكو الخيبة والحرمان:

([1])-ينظر، نوادر المخطوطات، الرسالة المصرية، تحقيق عبد السلام هارون، ص 8.

([2])-ينظر، نوادر المخطوطات، الرسالة المصرية، تحقيق عبد السلام هارون، ص 9.

بـــين التقـــزز والتـــــدلل مسلـــك   بـــادي المنـــار لعـــين كل موقـــف
فاســلكه في كل المــواطن واجــتذب   كبــــر الأبــــي وذلـــة المتـــملق

وأضاف قائلاً: "ومن شعرائها المشهورين أبو الطاهر إسماعيل بن محمد المعروف بابْن مكنسة، وهو شاعر كثير التصرف قليل التكلّف، مفتن في وشي جد القريض وهزله وضارب بهم في رقيقه وجزله، وكان في ريعان شبيبته وعنفوان حداثته يعشق غلاماً من أبناء عسكرية المصريين يدعى معز الدولة فائق، وهو الآن بمصر من رجال دولتها المعدودين وأكابرها المقدّمين، ولم يزل مقيماً على عشقه له وغرامه به إلى أن محا محاسنه الشعر وغير معالمه الدهر، ولم يزل معز الدولة هذا متعهّداً له محسناً إليه مشتملاً عليه إلى أن فرّق الدهر بينهما وكان في أيّام أمير الجيوش بدر الجمالي منقطعاً إلى عامل من النصارى، يُعرف بأبي مليح، وأكثر أشعاره فيه"[1] ويضيف قائلاً عن الشعراء: "ولم يُقْبل الأفضل عن أحد من الشعراء كإقباله على رجل من معرَّة النعمان يدعى أبا الحسن علي بن جعفر بن النون، فإنّه أفاض عليه سحائب إحسانه وأدر له حلوبة أنعامه، ولقّبه بأمين الملك وأدناه واستخلصه، ولم يكن شعره هناك بل كان متكلِّفاً متعسِّفاً، ولست أعرف أحداً من تلك البلاد يروي له بيتاً واحداً فما فوقه لمنافرة الطباع كلامه، ونبوء الأسماع عن طريقته، وقد كان أمَرَهُ الأفضل يوماً أنْ يصف مجلساً عُبّيت فيه فواكه ورياحين، فقال من مزدوجته يصف الأترج المصبّع:

كأنَّمـــــا أترجـــــــه المصــــــبّع   أيــدي جنـــاة مـــن زنـــود تقطـــع

([1])-المرجع نفسه، ص 43.

فغلط ولم يفطن وأساء أدبه ولم يشعر؛ لأنَّه قصد مدح الأترج فقزز نفس الملك منه وصرفها عنه، ولو قصد ذمَّه لما زاد على ما وصف به من الأيدي المقطوعة من زنودها والبليغ الحاذق من إذا وصف شيئاً أعطاه حقَّه ووفاه شرطه، ووصفه بما يناسبه في حالتي مدحه وذمه، ووضع كل شيء في مكانه في نثره ونظمه، فأين هذا الشاعر في أدبه وحذقه بالصناعة وفطنته من أبي الحسين بن رشيق، وقد أمره المعز بن باديس أن يصف أترجة مصبعة كانت بين يديه فقال مرتجلاً على البديهة:

أترجة سبطة الأطراف ناعمة تلقى العيون بحسن غير مبخوس
كأنها بسطت كفاً لخالقها تدعو بطول بقاء لابن باديس(1)

تلك نماذج من رسالة ابن أبي الصلت الأدبية المعروفة بالرسالة المصرية أوضحت من خلالها أسلوبه؛ لأنّ الرسالة في شكلها وصورتها الفنية لا تخرج عن الاتجاه الذي رأيناه عند غيره من أصحاب الرسائل الذين مارسوا صنعة الكتابة(2) وسوف أعرض لذكر بعض منها فيما بعد.

ومن الكتب الأدبية الأفضليات لعلي بن منجب الصيرفي، وهو كتاب يضم مجموعة من رسائله الأدبية التي أنشأها للملك الأفضل بن بدر الجمالي وتحوي مجموعة من الأمالي والمحاضرات كذلك عرض فيها بعض الطرائف والنوادر.

(1)-ينظر، نوادر المخطوطات، الرسالة المصرية، تحقيق عبد السلام هارون، ص 44.
(2)-ينظر، محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الفاطمي، ص 294.

الحكايات، والنوادر، والطرائف، وطيف الخيال

أوّلاً، الحكايات:

ازدهر فن الحكايات (القصص) بسبب عدد من العوامل لعل من أهمّها: اتساع رقعة الحروب الصليبية، وغزوات التتار للوطن العربي، فإنّ الشعوب في مثل هذه الحال تحتاج إلى شحذ هممها للجهاد في سبيل البقاء إلى جانب أنّ الحروب نفسها مناسبات صالحة لنشوء قصص البطولة والفروسية، ولرواية أخبار المغامرات[1]، وقد خلفت تلك الحروب كثيراً من القصص، والحكايات، والنوادر، والطرائف حيث حوت كتب التاريخ، والأدب قدراً كبيراً منها سواء ما تم إضافته، وزيادته من مجموعات قصصية جديدة إلى قصة ألف ليلة وليلة في مصر والعراق[2] حيث وردت حكايات كُتبت بعد منتصف القرن السابع من ذلك ذكر قبر الشيخ عبد القادر الجيلاني مما يدل على أن القصة كُتبت بعد سنــة 561 هـ، ويَرِد كذلك ذكر سنــة 561 هـ[3] أو بتدوين القصص والسير مثل: قصة سيف ذي يزن، وقصة الظاهر بيبرس التي تتضمن حروبه مع المغول[4] غير أنّ هذه القصص لم تدوّن على الشكل المعروف الآن إلاّ زمن الحروب الصليبية، فأكسبت خصائصها الأدبية من أحوال تلك الحقبة يقول محمد زعلول سلام: إنّ هذه الزيادات التي أضيفت إلى الأصل وقعت في القرن

(1)-ينظر، عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، 3/ 618.

(2)-ينظر، محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص 200.

(3)-ينظر، محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية بعد سقوط بغداد، ص 42.

(4)-ينظر، عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، 3/ 618.

السابع الهجري[1] كذلك اعتنى الأيوبيون بفن القصص والحكايات، واتخذوها وسيلة لحثّ الناس على الجهاد والدفاع عن الإسلام " فعيّنوا القُصاص في المساجد، وفي صفوف الجيش ليقصّوا على الناس أخبار المسلمين الذين أبلوا بلاءً حسناً في سبيل نشر الإسلام، وكان هؤلاء القصّاص يذكرون للناس سير الأولين، فيشعلون في القلوب نار الرغبة في التضحية والذود عن الإسلام"[2].

ثانياً، النوادر والطرائف:

روى أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار ما وقع له في حياته من العجائب والغرائب، منها ما يتعلق بمواقفه مع الفرنجة من ذلك قوله:" الله طفلاً، ورأيت واحداً منهم جاء إلى الأمير معين الدين - رحمه الله وهو في الصخرة، فقال: تريد تبصر الله صغيراً ؟ قال: نعم، فمشى بين أيدينا حتى أرانا صورة السيدة مريم والمسيح عليه السلام صغيراً في حجرها، فقال: هذا الله صغيراً - تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً"[3] وألّف كذلك القاضي بهاء الدين بن شداد كتاباً وسمه بـالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية حشد فيه كثيراً من الطرائف منها ما حدث في ميادين القتال، ومن النوادر المضحكة ما رواه أسعد مماتي المتوفى سنـــة 606 هـ وجمعه في كتاب وسَمَه بـالفاشوش في أحكام قراقوش ملأه بالنوادر، والنكت المضحكة، وزعم أن قراقوش صاحبها، أو هو الذي صدرت عنه هذه النكت والنوادر، فإذا قرأها الناس أغرقوا في الضحك، ومن تلك النوادر: إنّ قراقوش كان في كلّ سنة يتصدق بمال جزيل فلما انتهت الصدقة،

([1])-ينظر، محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص 200.

([2])-محمد سعيد الكيلاني، الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي، ص 175.

([3])-أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص 135.

جاءت إليه امرأة مات زوجها ولا كفن له، فقال: أمّا الصدقة هذه السنة فقد نفذت، ولكن إذا كانت السنة الآتية فتعالي نرسم لك بكفن- إن شاء الله تعالى- فتوجهت تتعجب من قوله[1].

ثالثاً، طيف الخيال:

امتاز القرن السابع الهجري بظهور كتاب طيف الخيال لشمس الدين محمد بن دانيال بن يوسف الموصلي المتوفى سنة 710 هـ، وقد حوى الكتاب ثلاث تمثيليات تختلف كل منها عن الأخرى، وهي نوع من الأدب الشعبي.

وأول هذه التمثيليات طيف الخيال، وهي تمثيلية تصور الحياة الاجتماعية زمن السلطان الظاهر بيبرس افتتحها ابن دانيال بنشيد يقول فيه:

سلام على السادة الحاضرين سلام المشرق الكئيب الحزين

سلام على من حوى ذا المقام من السادة الأتقياء الكرام

فهم خير من خوطبوا بالسلام وأكرم من صوفحوا باليمين[2]

وبعد إنشاده يُحيّ الحاضرين بالسلام قائلاً:

السلام عليكم أيها السادة ودمتم غي نعمة وسعادة، واعلموا أن لكل شخص مثال، وقد قيل في الأمثال: أنّه يوجد في الأسقاط ما يوجد في الأسفاط على أن لكل أسلوب طريقة وتحت كل خيال حقيقة وفي الهزل راحة من كلال الجدّ والنحس يظهر السعد، وقد يمل المليح، ويستحسن القبيح، والمصفوع حليم،

([1])-ينظر، فاروق سعد، الفاشوش في أحكام قراقوش، ص 76.

([2])-ينظر، محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ونتاجه العلمي والأدبي، 5/ 452.

وباذل نفسه كريم، والمؤاجر مصاف، والمبادل مواف[1] ثم يُعقّب ابن دانيال على ذلك بقصيدة يرثي بها شيخه إبليس، يقول:

مـــات يـــا قـــوم شـــيخنا إبلـــيس وخـــــلا منــــــه ربعــــه المـــــأنوس

وأما أسلوب الحكاية فيغلب عليه طابع الصنعة البديعية، فالقصة منثورة ومسجوعة يتخللها أبيات من الشعر مثل قوله: "أنا عيبة عيوب، وذنوب ذنوب، أنا قبضة من كف وقاد، وغمزة من عين قواد، أنا أصفع من كف خباز، وأرفس من رجل بزاز، أنا أبرم من حبل وأثقب من نبل، آكل من نار وأشرب من زبل"[2].

وأما الثانية فهي عجيب وغريب وقد عرض فيها ابن دانيال مجموعة من المناظر تقارب الخمسة والعشرين منظراً حقيقياً، تدور كلها حول بيان أحوال الأدباء الغرباء وحيلهم من أجل كسب لقمة العيش، أقتبس منها المنظر الثالث الذي يظهر فيه الحاوي، ويدعى حويش يلاعب الأفاعي والصلال، ويعلن بعد ذلك عن دواء ركّبه يشفي من سم الحيات والأفاعي المميت.

يفتتح حويش (الحاوي) حديثه بأبيات من الشعر، ثم يشير إلى سِلال بيده تحمل الأفاعي قائلاً: إنّ في هذه السلال سلال الآجال، وهلاك النساء والرجال، وهذا الناشر بل الأسد الكاشر، الهجام الحجام، بليّة مصر والشام، وهو الصل، والموت المطل، ويل لمن رآه على التلاع، وفرش له عرفه كالشراع، ونهشه لغضبه على غضبه بل يا سادة! هذه الحية البلية، والرقطاء الرملية، تضرب خف الجمل، فيصوت الجمّال، وتتوارى مدفنة في الرمال سمها رسيل الموت، ونابها نائب

(1)-ينظر، المرجع نفسه، 5/ 452.

(2)-محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، 5/ 454.

الفوت إلاّ أن هذه الحية الكبيرة المحصلة، وهي والله من بنات الأصلة طائرها واقع، وسمها فاقع، وهذه الأخرى هي المهلكة التي يقال لها الملكة[1] وهكذا يستمر الحاوي في عرض حيّاته على الناس الذين يشاهدونه، ثم يعلن عن دواء ركّبه يشفي من لدغ هذه الحيات، يقول: هذا هو المخلص من النهوش واللسوب والعضاض الشافي بعون الله من الأمراض، ركّبته من هذه الدواهي من قرص الأشقيل وقرص القنطل وقرص الأفاعي، وأضفت إليه من الفلفل الأبيض والايرسا وزر الورد والفارقون.

وأخيراً يأخذ في استجداء الحاضرين لأجل الحصول على قدر من المال، وهو يقول: اللّهُمَّ لا تجعله ذخيرة اللئيم، ولا تحلل عليه إلا عقدة كل كريم، هاكم وهاتوا لهاكم، نفعكم الله بهذه الإفادة، ومساكم بالنعمة والسعادة..... وهكذا تتوالى المناظر تباعاً حتى انتهاء التمثيلية.

وأما الحكاية الثالثة **(متيم)** فلم تعد أن تكون قصة على نمط المقامات، نستطيع أن نجد لها مثيلاً كمقامة الشاب الظريف[2] والقصة من الأدب المكشوف الماجن، وحوارها يدور بين عاشق ومعشوق، حول الحب والعشق والوله، منها قوله: أنا ملك الموت الذي يقرب في الفوت، ويقصّر الآمال والآجال، ويكثر المخاوف والأوجال[3].

([1])-ينظر، المرجع نفسه، 5/ 470.

([2])-ينظر، المرجع نفسه، 5/ 480.

([3])-ينظر، المرجع نفسه، 5/ 481.

النثر الوصفي

أولاً، التاريخ المسجوع:

سبق أن ذكرت أنّ عماد الدين الأصفهاني صنف كتابين مسجوعين في التاريخ أحدهما: الفتح القسي في الفتح القدسي، والآخر البرق الشامي، وذكرت رأي أبي شامة في هذا السجع، وأنّه يمل القارى منه، ويخرج عن الحوادث التاريخية التي يتقصاها الطالب، وأنّه حذف معظم تلك الأسجاع، ولم يبق منها إلا على ما استحسنه كي يُفهم المقصود من الكلام.

ثانياً، التراجم وسير الرجال:

يلحظ على كتب التراجم والسير أنّ أغلب كتّابها لم يلتزموا الأسلوب المسجوع السائد في تلك الفترة، من ذلك أنّ القاضي بهاء الدين بن شداد المتوفى سنـــة 632 هـ، صنّف كتاباً في سيرة صلاح الدين الأيوبي أوسمه بالنوادر السلطانية، والمحاسن اليوسفية بأسلوب مرسل حر لم يلتزم أسلوب عصره الذي تغلب عليه الصنعة البديعية من سجع وجناس وغيرهما، ولم تثقله تلك الحلي والمحسّنات[1] حيث تخلص من جميع الزخارف اللفظية، والتصنع البياني، من ذلك قوله في معرض حديثه عن صلاح الدين الأيوبي: "وكان الله قد أوقع في قلبي محبته منذ رأيته، وأحبّه الجهاد، فأحببته لذلك، وخدمته من تاريخ مستهل جمادى الأولى سنة أربعة وثمانين، وهو يوم دخول الساحل، وجميع ما حكيته

([1])-ينظر، محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص 268.

إنّما هو روايتي عمّن أثق به ممن شاهده"[1] وكذلك نجد الأمر نفسه عند أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار الذي تحرر فيه من جميع قيود التصنع اللفظي، فجاء أسلوبه مرسلاً حراً، والكتاب يعطي صورة مشوّقة لحياة كاتبه، وحياة أهل عصره، وحوى كذلك بعض مغامراته التي لاقاها في مصر والشام.

ثالثاً، الرحلات:

كثرت الرحلات في المشرق المغرب، وقد حاول الرحّالون العرب أن يعرضوا لنا جانباً مهماً من حياتهم أثناء معايشتهم وما لاحظوه في رحلاتهم، ومن هذه الرحلات الرحلة التي قام ابن جبير الأندلسي إلى المشرق العربي، وهي ذات أهمية خاصة إذ إنّها تعطي لمحة واقعية صادقة عن الحياة الاجتماعية في البلاد التي مر بها، وقد امتاز أسلوبه في بالسهولة فتخلص من جميع الزخارف اللفظية، والمحسنات البديعية " فجاءت رحلته قطعة أدبية جميلة، وبها مقطوعات يتجلى فيها فنّه، ويمتاز بالقوة الفائقة على تصريف الكلام"[2]، وكذلك صنّف عبد اللطيف يوسف البغدادي الموصلي الأصل بعد وصوله مصر أيام العزيز عثمان بن صلاح الدين الأيوبي كتاب (الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر) جرى في أسلوبه مجرى ابن جبير، فلم يلتزم أسلوب أهل عصره.

([1])-بهاء الدين بن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص 87.

([2])-المرجع نفسه، ص 20.

ثانيا، المقامات:

المقامة: اسم للمجلس ثم تطور هذا المعنى إلى الأحدوثة، يقول القلقشندى: " وسميت الأحدوثة من الكلام مقامة كأنّها تذكر في مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة من الناس لسماعها"[1].

أما عن نشأتها فيجمع مؤرخو الأدب العربي على أنّ أحمد بن الحسين بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنـــة 398 هـهو أول من ابتدع فن المقامات[2]، وهو أوّل من وفّى هذا حقّه، وجعله علماً قائماً بذاته، وقد اقتبس نسقه من أستاذه ابن فارس[3]، وعنه أخذ الحريري نسق مقاماته[4] وقد أملى بديع الزمان الهمذاني أربع مئة مقامة كلها " في الكدية تذوب ظرفاً، وتقطر حسنا، لا مناسبة بين المقامتين لفظاً"[5]، وعزا إلى أبي الفتح السكندري نشأتها، وإلى عيسى بن هشام روايتها، وكلاهما مجهول لا يعرف.

وحذا حذو بديع الزمان أبو محمد القاسم بن على بن محمد الحريري البصري المتوفى سنـــة 516 هـفأملى خمسين مقامة تقوم كلها على الإلحاح في الطلب والتوسل إلى ذلك بأنواع من الحيل والثقافة الأدبية، وأسند رواية مقاماته إلى الحارث بن همام البصري، وبطولتها إلى أبي زيد السروجي، وهي الشخصية التي

([1])-القلقشندي، صبح الأعشى، 14/ 110.

([2])-- يرى زكي مبارك أن بديع الزمان الهمذاني ليس مبتكراً لفن المقامات ، فقد ذكر ما نصه، وقد وصلت إلى أن بديع الزمان ليس مبتكر فن المقامات، وإنما ابتكره ابن دريد المتوفى سنة 321 هـ، وأورد نصاً يؤكد ذلك النثر الفني في القرن الرابع الهجري، 2/ 243.

([3])-أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي اللغوي، كان إماماً في علوم شتى وخصوصاً في اللغة وله عدة مصنفات منها كتاب المجمل في اللغة، توفي 395هـ. أبو منصور الثعالبي، يتيمة الدهر، 3/ 463.

([4])-ينظر، ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 2/ 161.

([5])-الهادي حسن حمودة، المقامات من ابن فارس إلى بديع الزمان، ص 23.

تدور حولها الأحدوثة (المقامة) ويسمى بالشحاذ أحياناً وبالمكدي أحياناً أخرى، وقد عرض مقاماته على مواطنيه من رجال اللغة والنحو في البصرة لبيان مدى قدرته، ويبرز أقصى ما للغة العربية من قدرة جمالية وبراعة لفظية وروعة بيانية[1].

أما عن فن المقامات في الفترة موضوع بحثنا فقد تطورت عند كتّابها، فمنحوا أنفسهم حرية واسعة في الخروج عن تقاليد السابقين "فخرجوا بها على الأقل عن ميدان الاستجداء، فكتبوها في الوصف والغزل والعظة وفي ألوان العلم، وضروب من الفكاهة والتسلية"[2]، وفي عرض مسائل العلم بأسلوب المقامة المشرق الذي يجتذب القاري ويستهويه، كما استعملت المقامات في غايات تعليمية[3]، وعلى ذلك فالمقامة في هذين القرنين لم تنشأ للتكدي والاستجداء.

وقد اعتنى الكتّاب والأدباء بالمقامات وضعاً وشرحاً، فقد شرحها محمد بن محمد المكي الصقلي المتوفى سنة 565 هـالمعروف بابن ظفر شرحاً كبيراً وصغيراً سماه (التنقيب على ما في المقاومات من الغريب) وهو الشرح المعروف بالمطول في شرح المقامات، وكذلك وضع الحسين بن صافي المتوفى سنة 568 هـ[4] مقامات حذا فيها حذو الحريري، قال في أولها: مقاماتي جد وصدق، ومقامات الحريري هزل وكذب[5]، ومن المقامات الجيدة في هذا العصر المقامة التي وضعها

([1])-ينظر، محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص 200.

([2])-محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، 5/ 370.

([3])-ينظر، محمد كامل الفقي، الأدب في العصر المملوكي، ص 117.

([4])-ينظر، ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 8/ 122.

([5])-ينظر، حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ص 1789.

الشيخ جمال الدين عمر بن إبراهيم بن الحسين الرسعيني التي ذكر فيها وقعة حلب وما حلّ بها من خراب، والتي عدها ابن الوردي من أحسن ما قيل في ذلك منها قوله: " هذا ونزلت فنون البلاء ببلاد الشام، وهملت عيون العناء كالغمام، وصار شام الإسلام كالوشام، وعزم الأنام في عزام، وخفيت أثار المآثر ودرست، وأطفئت أنوار المنابر وطمست، وحلبت العيون ماءها على حلب، وسكبت الجفون دماءها من الصلب، والتف عليها الختل والاختلال، واحتف بها القتل الوبال، واختطف من أعيانها عرائس الشموس والأقمار، واقتطف من أغصانها نفائس النفوس والأعمار، فستر سفور السرور، ونشر ستور الشرور، وتخرّبت الدور والقصور، ونحرت الحور في النحور، وجرت عيونها على أعيانها، وهمت جفونها على شبانها بدموع جرت نجيعاً لقطوع طرت سريعاً، ونما الطغيان والغش في روضة الشام، وسما العدوان في عش بيضة الإسلام"(1).

هذا جزء أقتطفته من النص الذي اقتطفه ابن الوردي من مقامة الرسعيني، ويلحظ على هذه المقامة أنها خلت من صفات المقامة، ولم تحتفظ منها إلاّ بأسلوبها المرصع المملؤ بالزخارف البديعية والصور البيانية، أما البطل الأسطوري والراوية التقليدي، والقصة المحبوكة، فلا نجد لها أثراً أبداً(2).

ومن الجدير بالذكر أن حاتم بن أحمد أبي الحسن المكنّى بأبي الجود الفرجوطي أنشأ مقامة طويلة قال في أولها: " رُوِيَ في الأخبار عن حاتم العطار قال: ضربت بظاهر بعض الأمصار لأقضي وطراً من الأوطار، فنظرت إلى أعلام على أطلال تلوح على البعد كالجبال، ففسحت الخطى في السعي إليها، وعولت في سرعة

---

(1)-ابن الوردي، تتمة المختصر في أخبار البشر، 2/ 380.

(2)-ينظر، عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام، ص 822.

المسير لديها، فإذا هي روضة قد زهت أوساق بواسقها، وأفرعت أفنان حدائقها، وظلت قطوفها، وحلت عن الإحصاء صنوفها، وصفقت جداولها، وزمزمت على إيقاع الأوتار بلابلها، وأخذ بها الهزار في الهدير، وتغنت الشحارير على حس النواعير"[1] وذكر الفرجوطي أبياتاً من الشعر، ثم تحدث عن أهل فرجوط فقال: "كحور متكئين على سرر متقابلين قد قضوا قمص الوقار، وتحلوا بحلل البهار والنصنار، يتناشدون الأشعار الأوسية والملح الأدبية، ويتواردون الأخبار النبوية والخطب الوعظية، ويتناظرون في الآراء الطبية والأحكام الفلكية، ويتناقدون النسب الهندسية والألحان الموسيقية، ويتجادلون في المعارك الربانية والنواميس الإلهية، فبينما هم على تلك الحال إذ ورد رجل من الرجال"[2].

والمقامة طويلة بيّن فيها حاتم معرفته بالفنون، وهي تشبه مقامة الرسعيني من حيث خروجها عن تقاليد السابقين، إذ خرجت عن صفات المقامة التقليدية، ولم تحتفظ إلاّ بالأسلوب المرصع بالزخارف اللفظية.

وللشاب الظريف شمس الدين محمد بن عفيف التلمساني المتوفى سنة 688 هـمقامات تعرف بمقامات العشاق تضمّنت قصة رمزية، وصف فيها حياته الخاصة، واستهدف من تأليفها إرضاء والده المتصوف بأسلوبه الظريف جاء فيها: " لم أزل مذ بلغت سن التمييز، أتولع بنظم الأراجيز، ومذ شب عمري عن الطوق مغرى بالغرام والشوق، اعتمد خلع العذار في حب السالف

([1])-الأدفوي، الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، ص 178.

([2])-المرجع نفسه، ص 179.

العذار، وأهيم بالشمول والشمائل، وأشرب زجاجة صفراء كالأصائل، وأقدم على رشف ثغور البيض، ولا أقدم حذراً من ضرب المرهفات البيض"[1].

تلك نماذج من المقامات التي وضعت في هذا العصر، وقد لوحظ خروجها عن تقاليد السابقين؛ لأنّ كتّابها وسّعوا المجالات التي كتبت فيها المقامات، فأصبحت مستعملة في مختلف الأغراض من وصف، وغزل، وشكوى وغير ذلك، وأهمية المقامات تأتي من كونها نتاج فكر، فالأدباء والكتّاب يسوقون في صفحاتها ترفاً بيانياً من استعارة، ومجاز، وكناية، وتشبيه، وهي حظ من القصة، وشرحها يثري اللغة، ويشد الانتباه إليها[2].

ثالثا، المناظرات:

المناظرة هي: موازنة تقوم بين شيئين لِبيان مزايا أحدهما عن الآخر، وبيان عيوبه التي تذكر على لسان الخصم عند المناظرة أثناء الحوار بين الأمرين، والمفاخرة هي المناظرة غير أنّها لا تكون إلاً في مقام التفاخر والثناء[3]، والمناظرات فن قديم وجد شيء منه عند الجاحظ في كتابه الحيوان مثل: الموازنة بين الديك والكلب، وهذا الفن لم يزدهر خلال ذلك العصر، وإنما نشط وازدهر في العصور التالية له.

إن أشهر المناظرات خلال هذين القرنين تلك المناظرات التي ظهرت أثناء الحروب الصليبية تتحدث عن تفضيل مصر عن الشام أو العكس، حيث كثر النقاش حول تفضيل مصر عن الشام، وكان القاضي الفاضل قد آثاره في كتاب

---

(1)-محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، 5/ 374.

(2)-محمد كامل الفقي، الأدب العربي في العصر المملوكي، ص 117.

(3)-محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية بعد سقوط بغداد حتى العصر الحديث، ص 64.

بعث به إلى صلاح الدين، وهو بالشام سنة 574 هـ حيث قال ذامّاً الشام وماءها ووخمها: " عرف المملوك من الكتب الواصلة التيات جسم المولى الأمير عثمان والحقير مما ينال ذلك الجسم الكريم يوقد في قلوب الأولياء الأثر العظيم، وقليل قذاة العين غير قليل، وماذا يقول في بلد لو صحت الحمية من مائه لكانت من أكبر أسباب صحة المحتمى وشفائه، فإنّه ماء يؤكل، وبقية المياه تشرب، ويجد خامته من ينصف ولا يتعصب(1)".

وله من كتاب آخر في ذم مدينة بعلبك: "فدعونا من بعلبك البلد الأعسر، ومن رأس عينها الضيقة المحجر، ومن ثلجها الذي تنفش الجبال بعهنه، ومن بردها الذي لا يشفع الجمر عنده إلاً بإذنه، وعودوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم، فإنّها قد علتها وحشة لقاطنها، فسألت دسوتها عن أقمار سلاطينها، واذكر النيل الذي وفّى لكم في هذه السنة بنقصه، وأبى أن يكون ماؤه ذخيرة لغير جودكم الذي أحصاه الله، ولم تحصه، واذكر فيضه، وماء طوبتها فقد كان يقيم الحجة على ثلج الشام، ووخمه بتغلغل برده فيسري إلى قلب العليل(2)".

وبعث زين الدين علي بن النجا المتوفى سنة 599 هـ وهو واعظ مشهور من أهل دمشق مقيم بمصر برسالة إلى صلاح الدين الأيوبي يشوّقه فيها إلى مصر ونيلها، ونعيمها وسلسبيلها، ودار ملكها، ودارة فلكها، وبحرها، وخليجها، ونشرها، وأريجها، ومقسيها، ومقياسها، وقصور معزها، ومنازل عزها، وجبرتها، وجزيرتها، وهكذا يستمر الواعظ في وصفها إلى أن يقول: "وشتاؤها في الفصل

---

(1)-أبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين، 2/ 3.

(2)-المرجع نفسه، 2/ 85.

ربيع نظير، وغبارها عبير، وماؤها كوثري، وترابه عنبري"[1] وردّ السلطان صلاح الدين الأيوبي على زين الدين بن نجا الواعظ برسالة من إنشاء العماد الأصفهاني قال فيها: "عرفنا طيب الديار المصرية، ورقّة هوائها، ونحن نسلم له المسألة في طيبها، وتوفير نصيبها، ورقّة نسيمها، ورائق نسيبها لكن لا ريب أن الشام أفضل، وأنّ أجر ساكنها أجزل، وأن القلوب إلى قلبه أميل، وأن الزلال البارد به أعلّ وأنهل، وأنّ الهواء في صيفه وشتائه أعدل، وأنّ الزهر به أشب، والنبت به أكهل، وأنّ الجمال فيه أكمل، والكمال فيه أجمل"[2]، ويمضي الكاتب في رسالته في تفضيل الشام على مصر مشيراً إلى اختيار الصحابة رضوان الله عنهم السكن بالشام، أما فتح دمشق بكر الإسلام[3]، وهكذا أخذ الكتاب ينشئون الرسائل والموازنات، فبعضهم يفضل مصر، و بعضهم الآخر يفضل الشام.

([1])-المرجع نفسه، 2/ 58.

([2])-أبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين، 2/ 58.

([3])-ينظر، المرجع نفسه، 2/ 59.

حظ الأمثال والحكم

أولا، المثل:

عبارة موجزة يتداولها الناس، وتتضمن فكرة حكيمة في مجال الحياة البشرية[1]، وأصل المثل قصة أو حادثة ذكر فيها المثل، ثم أصبح يكرر بالعبارة نفسها التي قيل فيها أول مرة من غير تغيير في نصّه ولفظه في حادثه أخرى مماثلة، ومن شروط المثل: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية فهو في نهاية البلاغة، وكذلك فإنّ رواية المثل تكون خالية من كل تعقيد لفظي، وألا يكون المثل مملاً، وألا تتغير صيغته.

فوائده:

للمثل فوائد منها: ترويح الخاطر، ونزهة البال، واستقصاء الحكمة، وكان كتّاب وأدباء هذا العصر كثيراً ما يضمنون رسائلهم الأمثال، فيذكرون المثل بنصه، أو بالإشارة إليه بغرض الاستشهاد به، فقد وردت أمثالاً كثيرة في رسائلهم وكتاباتهم من ذلك ما ورد في رسالة إخوانية ليغمر بن عيسى المعروف بابن العكبرى التي ذكر فيها معاشرة الإخوان ووصف الصيد والقنص منها قوله: ويا أفحم من قس وسحبان، وقس وسحبان رجلان من العرب يضرب بهما المثل في الفصاحة والبلاغة، وقال في موضع آخر من الرسالة نفسها: "وقلنا من عزّ بزّ، فانقلبت كالبرق الخاطف بدوي الرعد القاصف، وهبوب الريح العاصف، وقصدت سمتهن، وصارت من إشفاق الفرق تحتهن، وحملت عزة،

---

(1)-مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية، ص 332.

واحتملت أوزة، فقال صاحبها كل الصيد في جوف الفرا[1]، وقال أبو القاسم الواسطي في رسالة له بعنوان ما أخذ على ابن النابلسي الشاعر في قصيدة له في مدح الإمام الناصر لدين الله العباسي: لا مخبأ بعد يؤس، ولا عطر بعد عروس، كذلك ضمن يحي بن محمد رسالته المعروفة بالنمس أمثالاً كثيرة، منها قوله: "له مخاتلة سرحان، وهجمة ضيغم، أحن من نقبة، وأظلم من حية، أطيش من فراشة، وأسبق إلى الغايات من عكاشة، أخطف من عقاب، وأشجع من ساكن غاب، أسرق من جرذ، وأنوم من فهد، وألين من عهن، وأخشن من قد، بأسه قضاء على الطير منزل، وبطشه ملك بآجالها مرسل[2]

ثانيا، الحِكَم:

الحكمة: قول موجز يتميز بالفكرة الصائبة، والتعبير المحكم الدقيق، وتحوى توجيها إلى السلوك الحميد، فتتفق بذلك مع المثل في إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، لكنّها تختلف عنه في الآتي:

1- الحكمة توجيه إلى السلوك الصالح، والمثل غير ذلك.

2- تصدر الحكمة عن طائفة من عامة الناس تتميز بخبرتها الإنسانية الواسعة، وتجاربها الحياتية المتنوعة، وقدرتها الفائقة على الملاحظة، والمثل على خلاف هذا الوجه، حيث يصدر عن الأحمق والعاقل على حد سواء.

3- يرتبط المثل بقصة أو حادثة، والحكمة ليست كذلك فهي لا ترتبط بقصة أو حادثة.

وأما عن الحكمة في هذا العصر، فقد كان الكتّاب يضمنون كتاباتهم حكماً كثيرة لاسيما رسائلهم بغرض توجيه القراء إلى السلوك الحميد، من ذلك قول القاضي الفاضل في إحدى رسائله: "وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، وسيحصد

---

[1]-

[2]-الميداني، مجمع الأمثال، 2/ 136.

الزارعون ما زرعوا"[1] وكذلك ضمّن ابن عبد الظاهر في رسالته المسماة (التواضع) حكماً كثيرة منها قوله: " وها أنا قد وجدت مكان القول ذا سعة، والسيف أقطع ما يكون إذا هز، والجواد أسرع ما يكون إذا لزّ، وأن مع اليوم غدا ولو ترك القطا لهدا، وعداوة الشعراء بئس المقتفى"[2].

(1)-النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، 8/ 10.

(2)-الصفدي، تمام المتون، ص 409.

الألغاز والأحاجي

أولاً، الألغاز:

اللغز: هو الكلام الملتبس، وقد ألغز في كلامه يلغز إلغازاً إذا ورّى فيه، وعرّض ليخفى[1] وأصل اشتقاقه من "ألغز اليربوع، ولغز إذا حفر لنفسه مستقيماً، ثم أخذ يمنة ويسرة يوري بذلك، ويعمّي على طالبه"[2] وللغز أسماء كثيرة منها: المعاياة، العويص، الرمز، المحاجاة، أبيات المعاني، الملاحن، المرموس، التأويل، الكناية، التعريض، الإشارة، التوجيه، المعمى، ومعنى الجميع واحد.

واللغز سؤال يسوقه شخص متضمناً أوصافاً لشيء ما، ويطلب من المخاطب تعيين ذلك الشيء بقصد الاختبار الذهني، أو الترفيه[3] والمحاجاة، والتعمية أعمّ أسمائه، وإن كان الأصل في كلّها واحد، وتشارك الألغاز من جهة التعمية في جميعها، وإيرادها على ذلك الوجه المقصود[4].

ثانياً، الأحاجي:

أوّل من اخترعها وسمّاها أحجية أبو محمد علي بن القاسم الحريري الذي نظم في المقامة السادسة والثلاثين عشرين أحجية، والألغاز تثير انتباه السامع، وتشدّ فكره حتى يصل إلى المطلوب فضلاً عن كونها إثارة للعقول، وتنشيطاً

(1)-ابن منظور، لسان العرب، 5/ 405.

(2)-ابن رشيق القيرواني، العمدة، 1/ 307.

(3)-ينظر، مجدي وهبة، وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية، ص 318.

(4)-ينظر، مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، 3/ 403.

للأفهام، وجولة تقصر وتطول بين مفردات اللغة، فهي رياضة الفكر في تصحيح المعاني، وإخراجها على المناقضة والفساد على معنى الحق والصواب، واعتنى أهل هذين القرنين بالألغاز لاسيما أهل القرن السابع الهجري، فقد ذهبوا فيها كل مذهب فلم يسلم منها شاعر، ولم يخل منها ديوان.

اتسع النظم في الألغاز شعراً ونثراً، وبخاصة في العصر المملوكي لضعف ثقافة الشعراء، والأدباء الأمر الذي دفعهم إلى الجنوح إلى الصناعة اللفظية يظهرون حيالها طول باعهم في اللغة، وما يتصل بها، وقد نشأت في هذا العصر مجالس أدبية كان الناس يحضرون إليها، ويستمعون إلى محاضرات الأدباء ومناظراتهم، ويسهمون في حل الألغاز، والأحاجي فإذا استطاعوا حلها طربوا للنجاح، وازدادوا إقبالاً على تلك المجالس التي كانت تطرح فيها، وولعوا بالمزيد منها[1].

اشتهر الشاعر ابن عنين المتوفى سنة 630 هـ بفن الألغاز فقد أفرد له جامع ديوانه باباً ضخماً هو: الباب السادس والثلاثين، والمعروف أنّه كان يطارح بها الندماء، والأدباء في مجالس الملك المعظم[2].

([1])-ينظر، بكري شيخ أمين، مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، ص 176.

([2])-ينظر، محمد كامل الفقي، الأدب في العصر المملوكي، ص 174.

نماذج من الألغاز:

ألغز ابن عبد الظاهر في كوز (إناء صغير) له أذن أي عروة يغرف بها الماء قائلاً:

وذي إذن بـــــــــلا ســـــــــمع له قـــــلب بــــلا قـــــلب
إذا اســـــــــتولى على حـــــــب فقـــل مـــا شـــئت في الصـــب

عروة الكوز تسمى في العامية أذناً، وأذنه لا تسمع، وهو واسع ولكنّه فارغ، فقلبه أي وسطه لا قلب فيه أي لا عضو فيه مثل عضو الإنسان المسمى قلباً.

ومن الألغاز النثرية: ما تقولون فيما نزل من السماء، وعلق في الهواء له عين عمياء وكفّ شلاء ليس له العدل ثواب، ولا عليه أن جار عقاب، خلق من ثلاثة أجناس تضعضعه الأنفاس، جسمه عار من غير لباس، أخرس اللسان في أذنه خرصان مكرر الذكر في القرآن ينطوي إذا نام كالصّل، وفعله المستقبل معتل، وله في الآخرة أكبر محل[1]. الحل هو الميزان.

(1)-النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، 3/ 164.

الفصل الثالث

أعلام الكتابة بمصر والشام

أوّلا: أعلام الكتابة بمصر:

1 - ابن الصيرفي:

اسمه ونسبه:

هو أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان الصيرفي ولد يوم السبت الثاني والعشرين من شهر شوال سنـــة 463 هـ الموافق للثامن والعشرين من شهر مايو عام 1071م، واشتهر بابن الصيرفي؛ لأن والده كان يعمل صيرفياً.

أخذ ابن الصيرفي صناعة الكتابة عن العلاء الصاعد بن مفرج صاحب ديوان الجيش، ومهر فيها فألحقه الأفضل علي بن بدر الجمالي الوزير الفاطمي بديوان المكاتبات، وأعجب به الشريف ابن سناء الملك، فأسند إليه كتابة التقاليد، والمراسيم، والتوقيعات(1)، ثم ترأس ديوان الإنشاء في عهد الحافظ لدين الله، وظل يعمل فيه حتى وفاته سنـــة 522 هـ.

آثاره

خلف ابن الصيرفي مؤلفات أدبية وتاريخية عدة نذكر فيما يلي أهمها:

1- كتاب الإشارة فيمن نال رتبة الوزارة، أرّخ فيه لوزارة الدولة الفاطمية ووزرائها.

---

(1)-ينظر، شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات مصر، ص 406.

2- قانون ديوان الرسائل: تحدّث فيه عن نظام ديوان الرسائل، وما يجب أن يتحلى به رئيس الديوان، وموظفيه من أدب وثقافة، وحوى كذلك بعضاً من رسائله.

3- ديوان رسائل: يضم رسائله التي كتبها عن ملوك مصر تزيد على أربعة مجلدات.

4- الاستنباط في بيان مبدأ الاهباط.

5- عمدة المحادثة.

6- كتاب في الشكر.

7- مختارات شعرية كثيرة من دواوين بعض الشعراء مثل: ديوان ابن السراج، وأبي العلاء المصري وغيرهما.

8- جمعت له الكتب الآتية: منائح القرائح، ردّ المظالم، عقائل الفضائل، استنزال الرحمة، لمح الملح إضافة إلى رسالتي التدلي على التسلي، ومناجاة شهر رمضان في كتاب واحد وهو الأفضليات.

شعره:

ابن الصيرفي شاعر مقلّ لذلك لم يشتهر بين شعراء عصره، وإنّما اشتهر بالكتابة والترسل ومن شعره قوله:

لما غدوت مليك الأرض أفضل من حلت مفاخره عن كل إطراء

تغايرت أدوات النطق فيك على ما يصنع الناس من نظم وإنشاء

وله:

لا يبلــغ الغايــة القصــوى بهمتــه إلاَّ أخــو الحــرب والجــرد الســلاهيب

يطــوي حشــاه إذا مــا الليــل عانقــه على وشــيج مــن الخطــي مخضــوب(1)

الخصائص الفنية لرسائله

أثنى ياقوت الحموي على ابن الصيرفي قائلاً: " وقد اشتهر ذكره، وعلا شأنه في البلاغة، والشعر، والخط، فإنّه كتب خطّاً مليحاً، وسلك فيه طريقة غريبة"(1) وتحدث عنه شوقي ضيف فقال: كان يحسن الكتابة إحساناً بعيداً دون أي غرابة بل مع السهولة واليسر(2) واتبع ابن الصيرفي في أسلوبه طريقة ابن أبي الشخباء(3) ونهج نهجه في أسلوبه.

تأثر ابن الصيرفي بالقرآن الكريم، والحديث الشريف، فأخذ يقتبس منهما، ومن روائع اقتباسه من القرآن الكريم قوله في رسالته المسماة لمح الملح: وناهياً عن القنوط للجانين على أنفسهم والمسرفين(4) فقال تعالى على ما نطق كتابه الكريم: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾(5)، ومن الأمثلة على إيراده الآيات القرآنية بالنص كذلك قوله في إحدى رسائله: " فذاك من تمويه الفصيح

---

(1)-المرجع نفسه، 15/ 79.

(2)-شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات مصر، ص 409.

(3)-هو: أبو الحسن بن عبد الصمد بن أبي الشخباء، كان من فرسان النثر وله اليد الطولى فيه. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 2/ 89.

(4)-ابن الصيرفي، الأفضليات، ص 101.

(5)-سورة الزمر، الآية 53

وخدمه، وتصرف البليغ وتنوعه، وإلاً فالأول هو الصحيح الذي جاء في الكتاب والسنة، **قال الله تعالى:﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾** وقال تعالى:﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾[1] ولولا أن الاجتماع يخفف كل ما ينوء والاشتراك يهون صعب ما يسوء قال الله تعالى: ﴿ **وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ** ﴾[2] لأنه نفى عنهم الانتفاع بالاشتراك في العذاب تغليظاً عليهم لما قدموه من الظلم.

وكان ابن الصيرفي ينوّع بين الشعر والنثر، ويضمن رسائله أحياناً أبياتاً شعرية، ومن الأمثلة على ذلك قوله في رسالة التدلي على التسلي:

ثم أن التأسي يسهل المصاعب، ويهون المصائب، ولله درّ ابن دريد في قوله: وفي خطوب الناس للناس أسى، وإن كانت النساء قد غلبت على هذا الباب في المشهور من قولها:

ولـــولا كـــثرة البـــاكين حـــولي   على أخـــوانهم لقتلـــت نفسيـــ

ومـــا يبكـــون مثـــل أخي ولكـــن   أعـــزي النفـــس عنـــه بالتـــأسي

وقد جعلت العذر في تركها قتل نفسها كثرة الباكين حولها، وأين هذا من قول الآخر:

ولقــد هممــت بقتــل نفسيـ بعــده   أســفاً عليــه فخفــت ألاّ نلــتقي

([1])-سورة الممتحنة، الآيتان 4، 6.

([2])-سورة الزخرف، آية 39.

فذكر أن علّة ما همّ به من قتل نفسه الأسف على من فقده على أنّ ذلك في قوة الخنساء، وإنّ علة الامتناع ما جاء في الحديث من أن قاتل نفسه في النار[1]، وقد وثق بحصول من فقده في الجنة، وطمع بها إذا لحقه غير قاتل نفسه، وهذا العذر أشرف من عذر الخنساء؛ لأنّه للمخافة، وعدم اللقاء في المآل، وعذر الخنساء إنّما هو التأسي، ومن الخصائص الفنية لنثره كذلك احتفائه بضروب مختلفة من صيغ الجمل الدعائية التي يفتتح بها رسائله أو يوردها أثناء كلامه، ومن الأمثلة على ذلك قوله في رسالته المسماة استنزال الرحمة: " وللملوك مقرر هذه الرسالة خدمة كان رفعها إلى المجلس العالي المالكي – خلّد الله سلطانه وشيّد أركانه – وهي: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[2]، ومن الأمثلة كذلك قوله في موضع آخر من الرسالة نفسها: فكيف وأنواع الرأفة إلى مولانا – خلّد الله ملكه – منسوبة، وأقسام العواطف من سمائه مستنزلة مطلوبة، والجرائم عنده وإن عظمت مسموح بها مرهوبة على أنّ سطوته بالاجتماع مخوفة، وهيبته مرهوبة[3]، ومن خصائص نثره الفنية كذلك السجع الذي يعتمد عليه لغرض إيقاع توازن بين الجمل، وإحداث نغمة موسيقية، وسجعه خفيف لا غلظ، ولا كزازة، وكأنّه يفيض من ينبوع عذب شراباً يمتع النفس، ومن الأمثلة على استخدامه الأسلوب المسجوع قوله في

(1)-إشارة إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل "من تردّى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردّى فيها خالداً مخلداً أبداً، ومن تحس سمّاً فقتل نفسه فسمّه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً. أخرجه القسطلاني في كتابه إرشاد الساري إلى صحيح البخارى، 1/ 454 من طريق أبي هريرة.

(2)-سورة الأنبياء، آية 82.

(3)-ابن الصيرفي، الأفضليات، ص 28.

رسالة ديوانية بمناسبة سلامة ركوب الخليفة في إحدى جمع شهر رمضان: " الحمد لله الذي أعزّ الإسلام، وشيّد مناره، وأيد أولياءه ونصر أنصاره، وأظهر في مواسمه قوته واستظهاره، وختم الشرائع بشرف أبدي، فكان حظها منه إيثاره، وحظ الإسلام استبداده به استئثاره، وصلى الله على جدّنا محمد الذي كرمه باصطفائه، وأسعد من حافظ على اتباع نهجه واقتفائه، وبيّن بشرعه ما حلله وحرمه"[1].

ومن خصائص نثره اهتمامه بالازدواج، وهو وثيق الصلة بالسجع، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في إحدى رسائله الديوانية قوله: فنعمة الله سابقة ومننه متتابعة وملابسها ضافية، ومغارسها نامية وسحائبها هامية.

زاوج ابن الصيرفي بين الألفاظ سابقة ومتتابعة، مغارسها وسحائبها، نامية وهامية، ومن الأمثلة على الازدواج كذلك قوله في رسالة إخوانية بمناسبة عيد الغطاس، وهو أحد أعياد المسيح: "جرت العادة في الغطاس بإعمال الكأس والطاس، وهذه الآلة إذا فقدت الراح بمنزلة أجسام عدمت الأرواح، فداو باحيائها قلباً لي قريحاً، وإذا كانت عازر فكن مسيحاً.

قال محمد كامل حسين معلّقاً على هذه الرسالة: "ولعل رشاقة اللفظ، وحسن اختياره، والتأنق في الأسلوب والمعاني المستملحة الواضحة في هذه الرقعة تغني عن كل تعليق"[2].

ومن الخصائص الفنية التي اعتنى بها ابن الصيرفي الجناس، وهو سمة زخرفية تختص بالألفاظ، فكان يكثر منه ومن ضروبه المختلفة، ومن الأمثلة على ذلك

([1])-القلقشندي، صبح الأعشى، 8/ 312.

([2])-محمد كامل حسين، الحياة الفكرية والأدبية في مصر من الفتح إلى آخر الدولة الفاطمية، ص 224.

قوله في إحدى رسائله: إنّ أفضل ما اكتسبه المرء في وجوده، وأشرف ما منحه من كرم الله تعالى وجوده، ما يوفق له من إصلاح أخلاق النفس وتهذيبها، وتبليغها غاية تجود الخواطر فيها وتهذي بها، وأن من أدرك ذلك، فقد نال الرتبة العلية، وحاز السعادة الحقيقية؛ لأنّه حصل على فضيلة الذات، ووصل إلى أعظم اللذات، وهذه قضية لا تنتقض، ومقدمة لا يخالف أحد فيها ولا يعترض، ومن الزخارف البديعية التي اعتنى بها كذلك الطباق، ومن الأمثلة على ذلك قوله في إحدى رسائله الديوانية: الحمد لله كالئ خلقه في اليقظة والمنام، والكافل لهم بمضاعفة الأجر في شهر الصيام، وصلى الله على سيدنا محمد الذي بعثه رحمة للأنام، وعلى أخيه وابن عمّه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أخلص ولي، وأشرف وصي، وعلى الأئمة من ذريتهما الداعيين إلى دار السلام صلاة دائمة الاتصال مستمرة في الغدو والآصال، وأن من المسرة التي تتهادى، والنعمة الشاملة للخلق جميعاً وفرادى، ما منّ الله به من ظهور مولانا[1].

2- ابن الخلال:

اسمه ونسبه:

هو موفق الدين يوسف بن محمد بن الحسين بن الخلال المصري، أحد كبار كتّاب ديوان الإنشاء، وآخرهم في العصر الفاطمي، فقد كان كاتب السر للحافظ العبيدي ولمن جاء بعده.

(1)-القلقشندي، صبح الأعشى، 8/ 315.

وصفه العماد الكاتب بقوله: "ناظر ديوان مصر، وإنسان ناظره، وجامع مفاخره، وكان إليه الإنشاء"[1].

عمّر ابن الخلال طويلاً حتى أضر، وفقد بصره فلزم بيته، وهو أستاذ القاضي الفاضل وشيخه، وكان الفاضل يرعى له حق الصحبة، ويجري عليه ما يحتاج إليه حتى وفاته سنـــة 566 هـ، ولم تذكر المصادر شيئاً عن ولادته وطفولته.

آثاره:

لم تذكر المصادر أن له أثاراً سوى بعض رسائله المنشورة في كتابي صبح الأعشى للقلقشندي وحسن المحاضرة لجلال الدين السيوطي.

الخصائص الفنية لنثره:

أشاد بابن الخلال وبفنه وبفضله، معاصروه في الكتابة، وكتاباته تشهد بمهارته في ذلك، فمن سمات نثره اقتباسه من القرآن الكريم بالنص فقد كان يورد الآية أو الآيتين بلفظهما ونصهما في رسائله، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في تقليد الوزارة لطلائع بن رزيك قوله: "وأحكم معاقد الدين وجعله من هداته"[2]، قال تعالى فيهم: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ**﴾[3] ومن الأمثلة كذلك ما

(1)-العماد الكاتب، خريدة القصر وجريدة أهل العصر، قسم شعراء الشام، 1/ 235.

(2)-جلال الدين السيوطي، حسن المحاضرة، 2/ 207.

(3)-سورة الأنبياء، الآية 73.

ورد التقليد المشار إليه آنفاً قوله وحصل في ذلك على معنى قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾[1].

ومن خصائص نثره كذلك إيراده الآيات القرآنية بالمعنى دون النص عليها بصيغتها ولفظها، ومن الأمثلة على ذلك قوله في إحدى رسائله: وجعله خير رسول إلى خير أمّة أخرجت للناس، فقد أخذه من قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[2]، ومن خصائص نثره اعتماده على السجع كذلك، ومن الأمثلة على استخدام هذه السمة الزخرفية في كتاباته، قوله في رسالة تقليد الوزارة لشاور السعدي: "الحمد لله معلي الدرجات ورافعها، ومعيذ الأمم ونافعها، ومزيل البأساء ودافعها، ومجيب الدعوات وسامعها، ومضاعف المصالح وجامعها"[3].

والرسالة كلها مبنية على السجع، وفيها فوق ذلك ميل إلى الاقتباس من القرآن الكريم، وهما خاصيتان شائعتان في النثر الفاطمي، ومن خصائصه الفنية التي اهتم بها الجناس، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في رسالة التقليد المشار إليها أعلاه، قوله: "فالدولة العلوية بتدبيرك مختالة زاهية، وأركان أعدائها وأضدادها بجزمك واهية، وسعادات من تضمه، وتشتمل عليه متضاعفة غير منقطعة، ولا متناهية، ولم تزل للإسلام سيفاً قاطعاً ماضياً، وعلى الالحاد سيفاً مرهفاً قاضياً، تذود الشرك عن التوحيد، وتعد الكفر عن الإيمان فيحيد

(1)-سورة البقرة، الآية 143.

(2)-سورة آل عمران، الآية 110.

(3)-القلقشندي، صبح الأعشى، 10/ 319.

مرغماً ويبيد"[1]، واعتنى كذلك بالطباق، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في رسالة تقليد كتبه على لسان السلطان العاضد لدين الله الفاطمي بتولية الوزارة لشاور السعدي حيث قال: فقد فوض إليك البسط والقبض والرفع والخفض، والولاية والعزل، والقطع والوصل، والتولية والتصريف والصرف والإمضاء، والوقف، والغض والتنبيه، والإخمال والتنويه، والإعزاز والإذلال، والإساءة والإجمال، والإبداء والإعادة، والنقص والزيادة، والإنعام والإرغام، وفي النص فوق ذلك تصنع لمصطلحات النحو مثل قوله: الرفع والخفض، التصريف والصرف، كما اهعتنى كذلك بالتورية التي تظهر واضحة في أسلوبه من ذلك قوله في رسالة التقليد نفسها "ولم تزل للإسلام سيفاً قاطعاً ماضياً، وعلى الالحاد سيفاً مرهفاً قاضياً، فقد ورّى في كلمة ماضياً حيث أراد المعنى البعيد وهي الصفة القاطعة للسيف، وليس المعنى القريب، وكذلك ورّى في كلمة قاضياً، وقال كذلك في الرسالة نفسها وظهر بك الصلاح، وكان قبل وزارتك قليل الظهور، فقد رد العجز، وهو كلمة الظهور على الصدر الظهر.

تلك أهم خصائص نثر ابن الخلال وهي الخصائص نفسها التي سار عليها كتّاب العصر الفاطمي يضاف إلى ذلك أنهم كانوا يفتحون رسائلهم بالبسملة، والحمد والثناء على الله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك الصلاة على الوصي، والأئمة وإلحاح الكتّاب على انتساب عصرهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وإلى علي بن أبي طالب والإلمام بشيء من معتقدات الشيعة الإسماعيلية في الإمامة كل ذلك من مظاهر الكتابة المصرية[2].

([1])-المرجع نفسه، 10/ 315.

([2])-محمد كامل حسين، الحياة الفكرية والأدبية من الفتح إلى آخر الدولة الفاطمية، ص 232.

3- القاضي الفاضل:

هو أبو علي عبد الرحيم بن علي بن الحسن اللخمي، كان مولده في منتصف جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمئة للهجرة بثغر عسقلان بفلسطين، حيث كان والده يعمل قاضياً هناك، ويرى صاحب كتاب المختصر في أخبار البشر أنّه ولد سنـــة 526 هـ[1].

بدأ الفاضل حياته بحفظ القرآن الكريم، ثم أخذ الحديث عن الحافظ أبي القاسم بن عساكر، وطه السلفي، وأبي محمد العثماني، وأبي طاهر بن عون، وعثمان بن سعيد بن فرج العبدري، وأضاف بعض ممن ترجم له أنّه تلميذ لابن أبي الشخباء؛ لأنه كان يحذو حذوه في الصناعة[2] وكذا أخذ عن غيرهم من الأساتذة كما حفظ أشعار بعض شعراء العرب القدامى.

أرسله والده إلى مصر ليعمل في ديوان الإنشاء، قال القاضي عن ذلك: " أرسلني والدي، وكان إذ ذلك قاضياً بثغر عسقلان إلى الديار المصرية في أيام الحافظ، وهو أحد خلفائها، وأمرني بالمسير إلى ديوان المكاتبات، وكان الذي يرأس به في تلك الأيام رجلاً يقال له ابن الخلال، فلما حضرت الديوان، ومثلت بين يديه وعرفته من أنا وما طلبي رحّب بي وسهل، ثم قال ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات، فقلت ليس عندي شيء سوى أنّي أحفظ القرآن العزيز، وكتاب الحماسة فقال في هذا بلاغ، ثم أمرني بملازمته فترددت إليه، وتدربت بين يديه، ثم أمرني بعد ذلك أن أحلّ شعر الحماسة، فحللته من أوّله إلى آخره،

([1])-المختصر في أخبار البشر، 4/ 128

([2])-محمد كامل حسين، في أدب مصر الفاطمية، ص 337.

ثم أمرني أن أحلّه مرة ثانية فحللته"[1]، وكان سفره إلى مصر أيام الحافظ لدين الله الفاطمي الذي حكم مصر في الفترة الواقعة بين سنتي 543/524 هـ، وهذا يرجّح أنّ ولادته كانت في سنة 526 هـ كما في المختصر، وليست سنة 529 هـ؛ لأن سنّه وهو في الخامسة عشر لا تسمح له بالسفر من قطر إلى قطر، وتأهيله لكتابة الدولة، وقد اعتنى به ابن قادوس، وابن الخلال، ثم التحق بخدمة قاضي الإسكندرية أحمد بن عبد المجيد المعروف بابن حديد، وظلّ يعمل في خدمته حتى تولى الوزارة الفاطمية العادل بن رزيك، فاستدعاه إلى القاهرة للعمل بديوان الجيش، وعندما استولى صلاح الدين الأيوبي على الحكم جعله وزيره، وأسند إليه مهام ديوان الإنشاء، وصار يكتب عنه إلى ساير الملوك والحكام، والأقطار كافة، ورافقه في حملاته العسكرية حتى وفاته سنة 589 هـ، وكان صلاح الدين يقدر الفاضل ويجلّه، ويقول في

حقه: "لا تظنّوا أنّي ملكت البلاد بسيوفكم إنّما ملكتها بقلم الفاضل"[2] وبعد وفاة صلاح الدين بفترة وجيزة لزم القاضي الفاضل بيته حتى وفاته سنة 596 هـ

آثاره:

1- المتجددات (يومياته) ذكرها المقريزي في خططه، واستفاد منها، وفصّل فيها ما جرى من حوادث بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي.

2- الرسالة الحجازية.

([1])-أبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين، 192/1.

([2])-خير الدين الزركلي، الأعلام، 192/1.

3- رسالة في البلاغة اعتمد عليها ابن شيث القرشي في كتابه بديع القرآن.
4- مسودات رسائله إذا جمعت تزيد على مئة مجلد.
5- ديوان شعر يضم معظم شعره، وهو مطبوع بتحقيق أحمد بدوى.

الخصائص الفنية لنثره:

يعد القاضي الفاضل أشهر كتّاب هذا العصر، وقد أثنى عليه جميع من ترجم له قال ابن حجة الحموي: "ولعمري إنّ الإنشاء الذي صدر في الأيام الأموية، والأيام العباسية نسي، وألغي بإنشاء الفاضل، وما اخترعه من النكت الأدبية، والمعاني المخترعة، والأنواع البديعية"[1] والذي يؤيد قولي قول العماد الكاتب في كتابه الخريدة " رب القلم والبيان، واللسن واللسان، والقريحة الوقادة، والبصيرة النفاذة، والبديهة المعجزة، والبديعة المطرزة، والفضل الذي ما سمع في الأوائل بمن لو عاش في زمانه لتعلق بغباره أو جرى في مضماره، فهو كالشريعة المحمدية نسخت كل الشرائع ورسخت بها الصنائع، يخترع الأفكار، ويتفرع الأبكار"[2].

اختط الفاضل لنفسه طريقة عرفت فيما بعد بالطريقة الفاضلية وإن لم يأت فيها بجديد اللّهُمَّ زيادة في الصنعة والتمسك بها، والإلحاح عليها، وتمتاز هذه الطريقة بالإغراق في المحسنات البديعية مثل التورية والجناس، والإكثار من السجع، وظلت طريقته حتى عصر ابن خلدون، وهي: "طريقة أول ما يقال عنها إنها عويصة لا تطاوع لكل محاول، ولا تساس لكل سائس"[3] والفاضل في طريقته يعتمد على الاقتباس من القرآن الكريم، فهو يستغله لنفسه استغلالاً

([1])-أبو بكر علي بن حجة الحموي، ثمرات الأوراق، ص 133.
([2])-عماد الدين الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة أهل العصر قسم شعراء مصر، 1/ 35.
([3])-محمود مصطفى، الأدب العربي في مصر من الفتح العربي إلى نهاية العصر الأيوبي، ص 313.

فنياً صرفاً، وأن يتخذ منه صبغاً من أجمل أصباغه الفنية، وسمة نثر القرآن الكريم في رسائله كثيرة، فهو يدمج الآية أو الآيتين في كلامه فتصبح وكأنها جزء من هذا الكلام، ومن الأمثلة على اقتباسه لآيات من القرآن الكريم ما أفتتح به رسالة بشارة بفتح بلد من بلاد النوبة بعث بها عن السلطان إلى ديوان الخلافة ببغداد افتتحها بقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾[1] ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[2] ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾[3] وصلاة يتبعها تسليم، وكأس يمزجها تسنيم، وذكر من سبحانه في الملأ الأعلى، ومن روائع اقتباسه قوله في موضع آخر من الرسالة نفسها: " وطغى طوفان الطغيان ولا عاصم، وسما بناء البهتان ولا هادم، وضاقت الصدور ورحلت بغليلها إلى القبور وظن أن طي دولتهم معدوق بالنشور حتى إذا جلاها الله لوقتها، وأنجز جموع الضلال إلى ميعاد شتها، وأراهم آية معدلته ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[4] ﴿جَاء الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾[5] ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[6] كذلك يورد الآية أو الآيات بالمعنى وينثرها في كتاباته على طريقة ابن العميد في نثر الأشعار وطريقة نثر القرآن التي تميز بها الفاضل لم تكن طريقة بسيطة أو مسبوقة، فالقول ببساطتها، أو إمكانها مردود بمحاولتك

(1)-سورة الأنبياء، الآية 105.

(2)-سورة يس، الآية 57.

(3)-سورة الواقعة، الآية 89.

(4)-سورة الزخرف، الآية 48.

(5)-سورة التوبة، الآية 48.

(6)-سورة التوبة، الآية 16.

تقليدها، وعجزك كل العجز عن ذلك، والقول بأنها مسبوقة مردود كذلك ببحثك في آثار السابقين جميعهم قبل الفاضل، وانعدام هذه الخاصية في تلك الآثار[1].

ومن الأمثلة على اقتباسه من القرآن الكريم بالمعنى ما ورد في رسالة تقليد من خليفة لولده قوله: وإن يدك البيضاء تجسمت للناظرين لأعدت آية موسى الكليم، ولو أن هدايتك الغراء تنسمت للذاكرين لأحييت بها العظام وهي رميم، ففي النص نثر الفاضل آيتين أخذ الأولى من قوله تعالى: ﴿**وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ**﴾[2] وأخذ الثانية من قوله تعالى: ﴿**وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ**﴾[3]، ومن الأمثلة على اقتباسه من القرآن الكريم بالمعنى قوله في إحدى رسائله الديوانية: كتب الخادم هذه الخدمة تلو ما صدر عنه مما كان يجري مجرى التباشير بصبح هذه والعنوان لكتاب وصف هذه النعمة، فأنّها بحر للأقلام فيه سبح طويل، ولطـف الحق للشكر فيه عبء ثقيل فقد نثر قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً** ﴾[4] ومن سمات نثره تضمين الشعر، وهو أن يضمن البيت الكامل من الشعر، أو نصف البيت ويدخله في مضمون عباراته، أو يستشهد به في غرض ما، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في رسالة مزج فيها بين الشعر والنثر منها قوله:

([1])-ينظر، عبد اللطيف حمزة: أدب الحروب الصليبية، ص 186.

([2])-سورة النمل، الآية 12.

([3])-سورة يس، الآية 78.

([4])-سورة المزمل، الآية 7.

ووافي ما كنت أعهده

فخلت بأن العـين مـن سـحب كفـه   فمـن ذا ومـن ذا فيـه ينتـثر الدر

واسترجع فائت الدماء من مورده

ومـا كان عنـدي بعـد ذنـب فراقـه   بـأني أرى يومـاً بـه بـعد الدهـر

ونفس عن النفس بأبيض أثماده وعين العين بأسود أثمده

بـه لهمـا سـبح طويـل فهـذه   على خـاطر بـرد وفي خطـر بـدر

وجدد إليه أشواقا جديدها

يمـر بـه ثـوب الجديـدين دائمـا   فيـبلى ولا يبـلى وإن بـلي الدهـر

وذكر أياما لا يزال يستعيدها

وهيهـات أن يـأتي مـن الأمـر فائـت   فدع عنك هذا الأمر قد قضي الأمـر[1]

وله من رسالة أخرى مزج فيها بين الشعر والنثر وضمن نصف بيت الشعر يقول: ورد كتاب الحضرة بعد أن عددت الليالي ليلة بعد ليلة لطلوع صديعه.

وقد عشت دهراً لا أعد اللياليا

وبعد أن انتظرت القيظ والشتاء لفصل ربيعه

فما للنوى ترمي بليلى المراميا[2]

ومن سمات نثره كذلك حل معقود الشعر، وأدخلها في مضمون عبارته، ومن ا لأمثلة على ذلك قوله في وصف قلعة شاهقة، يقال أنها قلعة نجم:" وهذه القلعة عقاب في عقاب، ونجم في سحاب، وهامة لها العمامة عمامة، وأنملة إذا خضبها

([1])-القلقشندي، صبح الأعشى، 1/ 277

([2])-المصدر نفسه، 1/ 289.

الأصيل كان لهلالها قلامة"[1]، قال ابن خلكان: وملحه ونوادره كثيرة وقوله كان الهلال لها قلامة أخذه من قول عبد الله بن المعتز:

ولاح ضـــوء هـــلال كاد يفضـــحنا مثل القلامـة قـد قـدت مـن الظفـر

وقد جمعت هذه الرسالة صنوفاً كثيرة من البلاغة، من تشبيه، وتصوير، وبديع إضافة إلى السجع والجناس، ومراعاة النظير، فذكر الأنملة حين ذكر القلامة، فخضاب الأصيل لهذه الأنملة حسن أن يكون لها قلامة، وهذه غاية فاضلية لا تدرك، كذلك كان فاضل يتصنع لمصطلحات العلوم ولاسيما النحو، ومن الأمثلة على ذلك قوله في رسالة يعتذر فيها عن تأخر الكتب: "ومولى الأمة الذي تشابه يوم نداه وبأسه أن ركض جوداً، أو جواداً، وواحد الدهر الذي لا ينثني وإليه القلوب تثني، ولا يقبل الله جمعاً لا يكون لولائه جمع سلامة لا جمع تكسير، ولا استقبال قبلة ممن لا تكون محبته في قلبه تقيم، واسمه في عمله إلى الله يسير"[2] فالقاضي الفاضل يطيل السجعات ليضمّن مصطلحات النحو، فقد ذكر المفرد، والمثنّى ثم الجمع، ولم يكتف بذلك بل ذكر أيضاً جمع السلامة، كما أنّ السجع واضح في هذه القطعة، وفي معظم رسائله حيث يعد أهم خاصية لنثره، وتلوين أسلوبه بالجرس الموسيقي المتتابع، ومن الأمثلة على استخدام السجع كتاب كتبهُ يحمل بشرى بفتح القدس بعث به عن السلطان إلى ديوان الخلافة ببغداد منه قوله: "أدام الله أيام الديوان العزيز النبوي الناصري، ولازال مظفر الجد بكل جاحد غني التوفيق عن رأي كل راد موقوف المساعي على إقتفا مطلات المحامد مستيقظ النصر والسيف في جفنه

---

(1)-ابن خلكان، وفيات الأعيان، 3/ 159.

(2)-محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص 220.

راقد، وأرد الجود والسحاب على الأرض غير وارد متعدد مساعي الفضل، وإن كان لا يلقى إلا بشكر واحد"[1] ففي هذا النص: يظهر القاضي الفاضل بفنّه الذي نعرفه، فهو حريص على السجع كل الحرص حتى لكأنّ السجع غاية عنده وليس وسيلة، وهو حريص على الطباق كل الحرص فطابق الفاضل بين الألفاظ: موقوف ومطلقات، مستيقظ وراقد، متعدد وواحد طباق إيجاب، وسمة الجناس من أهم خصائص أسلوبه، فهو لا يكتفي بالجناس العادي البسيط بل يتعداه إلى الجناس المعقد، وفي النص الآتي نراه: يحتفل باستخراج كل ما يمكن من أشكال الجناس الهندسية، يقول الفاضل: "الحمد لله الذي صدقه وعده، وأورثه الأرض وحده، وجدد علاه، وأعلى جده، وأسعد نجمه وأنجم سعده، ووعده نجمه، وأنجح وعده، وأورده وصفه، وأصفى ورده"[2] ومن سمات نثره كذلك اعتماده على الطباق فهو حريص عليه، ولا تخلو رسائله منه، ومن الأمثلة على ذلك إضافة إلى ما أثبتّه آنفاً قوله في رسالة تقليد شيركوه الوزارة: "وألقى أليك المقاليد بهذا التقليد، وقرب إليك كل غرض بعيد وناط بك العقد والحل، والولاية والعزل، والمنع والبذل، والرفع والخفض والبسط والقبض، والإبرام والنقض، والتنبيه والفض، والإنعام والانتقال، وما توجب السياسة إمضاءه من الأحكام"[3].

في النص المعروض نرى القاضي الفاضل يهتم كثيراً بالطباق متأثّراً في ذلك بكتّاب عصره، وهو لا يختلف كثيراً عن النص الذي أوردته لشيخه الموفق بن الخلال.

([1])-عبد اللطيف حمزة، أدب الحروب الصليبية، ص 177.

([2])-القلقشندي: صبح الأعشى، 6/ 511.

([3])-المصدر نفسه، 10/ 88.

ومن سمات نثره كذلك تشخيص الجماد، فهو يضفي عليه صبغاً من أجمل أصباغه الفنية، فيصبح ذلك الجماد، وكأنه إنسان له مشاعر وأحاسيس، نابض بالحركة، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في رسالة بشارة بفتح بيت المقدس، حيث شخّص الصخرة بقوله: "ولما قدم الدين عليها (الصخرة) عرف منها سويداء قلبه، وهنأ كفؤها الحجر الأسود بيّت عصمتها من الكافر بحربه"[1] فشخص الصخرة في صورة إنسان، ثم صورها وقد رجعت إلى الإسلام بصورة امرأة جاهدت حتى خلصت نفسها من الكفر، ومن الأمثلة على ذلك قوله في موضع آخر من الرسالة نفسها: " فتقدم إلى الصخر فمضغ سرده بأنياب معوله، وحل عقده بضربه الأخرق الدال على لطافة أنمله، وأسمع الصخرة الشريفة حنينه واستغاثته إلى أن كادت ترق لمقبله، وتبرأ بعض الحجارة من بعض وأخذ الخراب عليها موثقاً فلن تبرح الأرض"[2]، ومن سمات نثره كذلك العناية بالمقابلة فيها. قال: وفل سيفه فصار عصاً، وانظر إلى هذه المقابلات المتتابعة لدى الفاضل في الرسالة نفسها: ويحصد منها كفراً ويزرع إيماناً، ويحط من منائر جوامعها صلباناً، ويرفع آذاناً، ويبدل المذابح منابر، والكنائس مساجد، ومن سمات نثره التورية، وقد قيل: أن الفاضل هو الذي عصّر سلافة التورية لأهل عصره، وتقدم على المتقدمين بما أودع منها في نظمه ونثره، فإنّه - رحمه الله تعالى- كشف بعد طول التحجب ستر حجابها، وأنزل الناس بعد تمهيدها لساحاتها ورحابها"[1]، ومن الأمثلة على التورية ما جاء في رسالة تقليد الوزارة

([1])-القلقشندي: صبح الأعشى، 6/ 497.

([2])-المرجع نفسه، 6/ 501.

([1])-المرجع نفسه، 6/ 500.

لصلاح الدين الأيوبي: " هذا ولو لم يكن لك هذا الإسناد في هذا الحديث، وهذا المسند الجامع من قديم الفخر وحديث لاعنتك غريزة غزيرة، وسجية سجية، وشيمة وسيمة، وخلائق فيها ما تحب الخلائق"[1] فالفاضل يبدأ القطعة بذكر الحديث، والإسناد كي يحدث تورية، فهو يقصد العهد الذي كان عليه صلاح الدين وعمّه، وجهوده التي يبذلها من أجل الخليفة الفاطمي، وليس المراد المعنى القريب، وهو الحديث الشريف ثم يجعل صلاح الدين المساعد ويستمر في تورياته، فيجعل قديم الفخر صلاح الدين، وحديثه مسنداً جامعاً، وكتب المسانيد معروفة، كذلك جانس بين خلائق بمعنى طباع، وخلائق بمعنى ناس محدثاً تورية، ومن الأمثلة على التورية كذلك ما ورد في رسالة بشارة فتح القدس قوله: "والشرق يهتدي بأنواره، بل أن أبدي نوراً من ذاته هتف به الغرب بان وراه"[2] فجانس الكاتب جناساً تاماً محدثاً تورية في (أن وراه)، ومن الأمثلة على التوية قوله في إحدى رسائله: "في يوم شديد المطر والبرد والخادم في رأس جبل يتلقى الرحمة غضة قبل أن يبتذلها الناس، ويصافح الرياح عاصفة قبل أن تقتسمها الأنفاس، ويتلقى الرعد بالرعدة، وإذا السماء انشقت استصحاها المملوك بالسجدة"[1] فقد ورى في كلمة إذا السماء انشقت كذلك ورى في كلمة السجدة.

4- ابن عبد الظاهر:

اسمه ونسبه:

([1])-المرجع نفسه ، 10/ 94.

([2])-ينظر، شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات مصر، ص 413.

([1])-شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص 375.

هو محيي الدين بن عبد الظاهر بن رشيد الدين بن عبد الظاهر بن نشوان الجذامي السعدي ولد بمصر في شهر محرم سنة 620 هـ في أسرة عربية عريقة، عرفت بالعلم والأدب، ترأس كثير من أبنائها دواوين الإنشاء.

تلقى محيي الدين تعليمه بمصر، فأخذ العلم عن أبيه الذي كان من أرباب البلاغة، وعن جماعة من علماء عصره منهم: جعفر الهمداني، وعبد الله بن إسماعيل بن رمضان، ويوسف المخيلي وغيرهم.

ترأس ابن عبد الظاهر ديوان الإنشاء زمن السلطان الظاهر بيبرس، وسار فيه سيرة حسنة، فكان أحد فضلاء عصره حسبما قاله النويري:" كان رحمه الله من أجلّ كتّاب العصر وفضلاء المصر، وأكابر أعيان الدولة، والذي افتخر بوجوده أبناء عصره على الأوائل، وله من النظم الفائق ما راق صناعة وحسناً، ومن النثر الرائق ما فاق بلاغة ومعنى، فقصائده مدونة مشهورة، ورسائله بأيدي الفضلاء، ودفاتره مسطورة، وكلامه كاد يكون لأهل هذه الصناعة، وعليهم حجة، وطريقه في البلاغة أسهل طريقة في الفصاحة، وأوضح حجة"[1].

توفي محيي الدين يوم الأربعاء الثالث من شهر رجب سنة 692 هـ

(1)-النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، 8/ 101.

آثاره

محيي الدين لم يشغل وقته كله للعمل في ديوان الإنشاء بل أكب على التأليف، فصنف مؤلفات عدة من أهمها.

1- الألطاف الخفية من السيرة السلطانية الأشرفية: وهو كتاب تاريخي أرّخ فيه لمصر زمن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون الذي حكم مصر في الفترة الواقعة بين سنتي 693/689 هـ ورتّب حوادثه على توالي السنوات وهو مطبوع.

2- تحرّي الصواب في تهذيب الكتاب اعتنى فيه مؤلفه بالخط العربي.

3- تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، وهو الكتاب مطبوع، بتحقيق مراد كامل.

4- تمائم الحمائم: خصص فيه فصلاً فيما ينبغي أن يعمله المنطق وما جرت به العادة في ذلك.

5- الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم: جمع فيه مختارات من رسائل القاضي الفاضل.

6- الروضة البهية الزاهرة في الخطط المعزّية القاهرة: اعتمد عليه المقريزي في خططه، واستشهد بكثير منه.

7- رسالة في الخيل.

8- سيرة الملك الظاهر بيبرس المتوفى 676 هـ وهي منظومة مازالت مخطوطة منها نسخة بالمتحف البريطاني.

9- النجوم الدرية في الشعراء المصرية.

10- مقامة في وصف النيل.

11- سيرة القاضي الفاضل.

الخصائص الفنية لرسائله

ابن عبد الظاهر كاتب أجاد فن الكتابة، وبرع فيها فقد وصفه الذين ترجموا له بأنّه أحد البلغاء المذكورين، له النظم الفائق، والنثر الرائق كذلك ذكره صاحب كتاب البداية والنهاية بقوله: آخر من برز في هذا القرن على أهل زمانه، وسبق أقرانه[1]، والذي يلاحظه الدارس لرسائله تأثره بالقرآن الكريم، وكثرة الاقتباس منه في رسائله، وإيراده الآيات القرآنية بالنص، أو إيراده لها بالمعنى.

ومن الأمثلة على اقتباسه الآيات القرآنية في رسائله ما ورد في التقليد الذي كتبه بتولية الظاهر بيبرس الحكم حيث يقول: (ووثقت بميثاقه، فتركت الألسن متفتحة بقول الله الكريم: ﴿**إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾[2] ومن الأمثلة على اقتباسه كذلك قوله في رسالة جواب عن كتاب يفتح التوبة: وأنت على كل جبار عتيد، وحكمت بعدل السيف في كل بعد سؤ ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾[3] كذلك كان محيي الدين يورد الآية، أو الآيتين بالمعنى دون النص عليها بلفظها، ومن الأمثلة على ذلك قوله في رسالة ديوانية بولاية العهد للأشرف خليل "وفي المثيرات في الإعداد على الأعداء نقعاً، وفي المغيرات صبحا"[4]، ومن الأمثلة على اقتباسه من القرآن الكريم كذلك قوله في

([1])-ينظر، الحافظ ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، 13/ 334.

([2])-سورة النمل، الآية 30.

([3])-سورة فصلت من الآية 46.

([4])-النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، 8/ 121.

الرسالة نفسها: كما أنّا نوصيك بجيوش الإسلام، كذلك نوصيك بالجيش الذي له المنشآت في البحر كالأعلام.

ومن خصائص نثره تضمين رسائله أطيب الشعر، فقد كان يفتح رسائله، أو يضمنها، أو يختمها بأبيات من نظمه، أو من نظم غيره، وينوّع بينه وبين النثر، وكان يكثر من تضمين الشعر، ومن الأمثلة على ذلك قوله في رسالته الإخوانية التواضع: "وما كان أشغلك عن ذكري بذكرك، وأحقك بان تجيل في خويصة نفسك جواد فكرك، وأولاك بأن تدخل في رحمة الله بمعرفاتك لقدرك.

ولـــــو أني بليـــــت بهاشـــــمي   خؤولتـــه بنـــو عبـــد المــــدان

لهـــان علي مـــا ألـــقى ولكـــن   تعـــالوا فـــانظروا بمـــن ابــتلاني

وتلك لقد استنطقت من مثلي مفوهاً، وآثرت من دمي مرفها، وهززت من قلمي مثقفاً وأصلت من كلمي مرهفاً

مــتى ســألت بغــداد عــني وأهلهــا   فــإنّي عــن أهــل العواصــم ســائل

ولئن عبت مني يا بن لخم هجاء، فإنّي لأرجو أنه سيبعث بك داء

لقــد هــزّ مــنّي عامــر يــوم لعلــع   حســاماً إذا ذاق الضريــبة صــمما

وها نحن ننتظر فعل الله فيك بما تفعل بنفسك، ونحسب لك عثارك من أمسك، ونتربص بك الدوائر تربصك بنفسك.

ومــن يــتربص صــولة الدهــر يلقــه   وشــيكاً وهــل تــوحي الأســاود بــالولع

ومن سمات نثره حل معقود أبيات القريض، وإدخالها في مضمون عباراته، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في كتاب كتبه جواباً عن كتاب ورده بفتح النوبة قال فيه: والشكر لله على إذلال ملكهم الذي لان وهان، وأذلّه لباسه الذي صرح

به يسر كل منهم في قتال فأمسى وهو عريان، وإزهاقهم الأسنة التي غدا طعمها كفم الزق، والزق ملآن[1]، فقد نثر الكاتب ببيتين من أبيات الشعر للفند الزماني هما:

فلمـــــــا صرح الشر ــــــــ وأمسى ـــــ وهـــــو عريـــــان

بطعـــــن كفهـــــم الـــــزق غـــــدا والـــــزق مـــــلآن

كما كان ابن عبد الظاهر يضمن كلامه أمثالاً وحكماً، ومن الأمثلة على ذلك قوله في رسالته الإخوانية التواضع: والبيت بأهله، والغمد بنصله، والثوب بلابسه، والجواد بفارسه والقوس براميها، والصهوة براقيها، ومن أسافل البحور تترقى الدراري إلى أعالي النحور[2].

كما كان يتصنع لاصطلاحات العلوم، وبخاصة النحو، ومن الأمثلة على ذلك قوله في رسالة اقترحت عليه أن تكون توقيعاً لمدرس نحو افتتحها بقوله: " حرس الله نعمة مولاي، ولازال كلم السعد من اسمه وفعله، وصرف قلمه يأتلف ومنادي جوده لا يرخم، وأحمد عيشه لا ينصرف، ولا عدم مستوصل الرزق من براعته التي لا تقف الوصل، ولا عدمت نحاة الجود من نواله كل موزون ومعدود، ومن فضله وظله كل مقصور وممدود، ولا خاطبت الأيام ملتمسة إلا بلام التوكيد، ولا عدوه إلا بلام الجحود، هذه المفاوضة إليه أعزه الله تفهمه أنّا بلغنا أنْ أضمر سيدنا له فعلاً غدا به منتصباً للمكايد ومتصلاً،

([1])-ينظر، ابن شاكر، فوات الوفيات، 2/ 181.

([2])-ينظر ، الصفدي، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، ص 408.

وليس موصولاً كالذي يصله وعائد، وما دأب إلا لأنّ معرفتها داخلها التنكير"[1].

وحفلت رسائله بضروب مختلفة من صيغ الجمل الدعائية التي افتتح بها رسائله، أو أوردها أثناء كلامه، ومن الأمثلة على ذلك ما افتتح به رسالة التواضع" بلغني- أعزك الله - ولا برحت رحيب فناء قشيب ملبس العمر، يانع ثمر الشكر، مفعم حياض البر، أنّ فلاناً غض مني كل غض"[2] ومن الأمثلة على استخدامه الجمل الدعائية كذلك قوله في رسالة ديوانية بتقليد الظاهر بيبرس الحكم: والوقوف عند نهيه، وأمره في كل حكم وتصريف، فمازالت خلد الله سلطانه قائماً بسنته وفرضه، ومن سمات نثره عنايته بفن السجع، فقد كان يستخدمه في كتاباته، وكثيراً ما يطيل السجعة الثانية ليضمنها ما يريد من المحسنات البديعية، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في رسالة عهد الظاهر بيبرس قوله: "الحمد لله مجري الأقدار، ومظهر سر الملك فيمن أضحى عند الإمامة العباسية بحسن الاختيار من المصطفين الأخيار جامع أشتات الفخار، ورافع لواء الاستظهار، ودافع الأواء والأضرار بجميل الالتجاء إلى ركن أمس بقوة الله تعالى عالي المنار، وافى المبار بادي الآثار الجميلة والإيثار"[3] ومن المحسنات اللفظية التي اعتمد عليها ابن عبد الظاهر لتزيين ألفاظه، وزخرفتها الجناس، ففي النص السابق جانس جناساً ناقصاً بين الألفاظ: الأقدار والأخيار، والفخار والاستظهار، والمبار والمنار، الآثار والإيثار، ومن الأمثلة على عنايته بفن الجناس

(1)-القلقشندي، صبح الأعشى، 1/ 176.

(2)-الصفدي، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، 10/ 73.

(3)-القلقشندي، صبح الأعشى، 10/ 59.

قوله في رسالته الأخوانية التواضع "وسأدهمه منها بما لا قبل له بها، وأجلب عليه بخيل ورجل، ولا قدرة له على جلبها، وإن كان عرضه لا يصلح للهجو، ولا يساوي ثلبة أجرة الرفو، فقد يجرب السيف في خف البعير، ويستحيل نكاح المرأة البدينة بالعبد الصغير، وتصفى الفضة الخلاص بالرصاص، وتفصل عقود الجوهر بالسحاب، وتساغ اللقمة المحللة بمحرم الشراب"[1] وفي قوله: أجلب عليه بخيل ورجل، ولا قدرة له على جلبها محسن بديعي حيث ردّ العجز جلبها على الصدر أجلب، كما حفلت رسائله بكثير من ضروب المحسنات البديعية وبخاصة الطباق، وهو الجمع بين الشيء وضده، ومن الأمثلة على عنايته بالطباق قوله في التقليد الذي كتبه بتولي بيبرس الحكم: ألقى إلي أوامره أزمة البسط والقبض، والإبرام والنقض، والرفع والخفض، ومن سمات أسلوبه كذلك العناية بلون التورية، وقوله في رسالة تعزية بعث بها إلى صاحب اليمن: "ومن إذا قيل لبناء ملك هذا عليّه قد وَهَى، قيل هذا خير منه، من أعلى بناء سعد أشرف"[2] فقد ورّى محيي الدين في كلمة أشرف حيث أراد المعنى البعيد وهو الإشارة إلى ولي العهد الأشرف خليل وليس الإشارة إلى الصفة، ومن المحسنات المعنوية التي كان يستخدمها مراعاة النظير كقوله في إحدى رسائله: ويجعلها بعد حمل هذا الهم وفصاله علي عليه فاطمة، وأن يحبب إلينا كل ما يلهي عن الأموال والأولاد من غزوة وجهاد، فقد جاء بلفظ فاطمة مع علي وهو يريد الصفة وواضح أنه ذكر هنا الفصال حين ذكر الحمل كما ذكر فاطمة حين ذكر علياً، وهي ما يسمّى عند أصحاب البديع بمراعاة النظير.

([1])-الصفدي، تمام المتون، ص 412.

([2])-الصفدي، تمام المتون، 7/ 359.

ب- أعلام الكتابة بالشام

1- الخطيب الحصكفي:

اسمه ونسبه:

هو أبو الفضل يحي بن سلامة بن الحسين الحصكفي، ولد بطنزة سنة 459هـ، ونشأ بحصن كيفا وإليه نُسب.

رحل أبو الفضل يحي الحصكفي إلى بغداد فأخذ العلم والأدب عن أبي زكريا يحي بن علي الشيباني التبريزي، وبرع في المذهب الشافعي وفي الفضل، ثم عاد إلى ميافارقين، وتولى الخطابة وأمر الإفتاء بها.

والمترجم له نحوي، أديب، ناثر، شاعر، إمام في علوم كثيرة، كان يتشيع في شعره، وصفه العماد الكاتب في مقدمة ترجمته بقوله: "علامة الزمان في علمه، ومعري العصر في نثره ونظمه بل فضل المعري بفضله وفهمه، وبزّ الحريري برقة طبعه"(1) وكانت وفاته بميافارقين سنة 551 هـ وقيل سنة 553 هـ.

آثاره:

خلف يحي بن سلامة المؤلفات الآتية:

1- ديوان شعر مفقود

2- ديوان رسائل في مجلد واحد منه نسخة بدار الكتب المصرية تضم نثره، وبعضاً من شعره.

3- ديوان خطب.

4- كتاب عمدة الاقتصاد في النحو والصرف.

---

(1)-العماد الكاتب، خريدة القصر وجريدة أهل العصر، قسم شعراء الشام، 2/ 472.

5- قصيدة تشتمل على الكلمات التي تقرأ بالضاد، وما عداها يقرأ بالظاء، وهي مشروحة بشرح وجيز

أولها:

خـذ مـن الضـاد مـا تـداوله النـا س ومـا لا يكـون عنـه اعتيـاض

خصائص نثره:

اتّبع الحصفكي في رسائله الأسلوب المسجوع المليء بالجناس والزخارف البديعية إضافة إلى غرابة الألفاظ وتعقيدها، وهذا التعقيد الدليل الأول في تلك العصور على مهارة الكاتب، وبلاغته، وقد وصف العماد الأصفهاني أسلوب الحصكفي بقوله: " كأنه الوشي المدبج والروض المبهج، والديباج الخسرواني رونقاً وجمالاً، والعضب العندواني فرندا وصقالاً، بجميع در النظام، ودر الغمام، ودراري الظلام، في سلك الكلام، وتعرب عربيته عن الغريزة العزيزة، والروية الروية، والذكاء الذكي، والبيان الوائلي، والخاطر الخطير، والفضل الكثير والحكم المحكمة، والفصاحة المفصحة بحروف للظرف وظروف ومعان اللطف مغاني، وفصول للمحسن فصوص، وكلمات عذاب جزلة، وكلمات عذارى جثلة، وألفاظ ساحرة، كألحاظ فاترة"[1] ومن الأمثلة على استخدامه هذا الأسلوب قوله في إحدى رسائله : (ما كل عبرة تسفح، عن زفرة تلفح ، قلبي الوطيس، وتحن العيس، وعندي اللاعج، وترزم النواعج، فعد عن دفع النفاق، ودعوى الإشفاق إنما كمون الداء حيث تنفس الصعداء)[2].

([1])-العماد الكاتب، خريدة القصر وجريدة أهل العصر، قسم شعراء الشام،، 2/ 477.

([2])-المصدر نفسه، 2/ 500.

اعتمد الحصفكي في هذا النص الذي أورده العماد الأصفهاني على السجع القصير الفقرات، وهو عند علماء البلاغة أوعره مذهباً، وأبعده متناولاً، فكلما قلت الألفاظ كان أحسن لقرب الفواصل المسجوعة من سمع السامع[1] ومن الأمثلة كذلك على استخدامه هذا النوع من السجع القليل الكلمات والقصير الفقرات قوله في إحدى رسائله: "للقلوب من دون أستار الغيوب - أطال الله بقاء القاضي - حواس سلمت مطالعها وعدمت موانعها، فلا يوقد سامعها، ولا يعشى طالعها؛ لأنها صفت فوصفت، وسرحت فشرحت فهي تستمد القوى من أنوار ذواتها، وتتلقاها من فيض أدواتها، وتلك لأجل الأحوال، وأنا منها على الأقوال وأخرى تطالعها الأنوار من مظانها في مكامنها، وتتصل بها القوى لدى مساكنها من معادنها؛ لأنها قصرت فنصرت، وحصرت فبصرت"[2] والذي يلقي نظرة على النص المساق يرى أنه ملئ بالجناس، فالكاتب جانس بين الألفاظ جناساً ناقصاً، مطالعها وموانعها، سامعها وطامعها، صفت ووصفت، سرحت وشرحت، ذواتها وأدواتها، الأحوال والأقوال قصرت ونصرت، حصرت وبصرت.

ولفرط عنايته بالجناس أنشأ رسالة على لسان القصّار والصياد، وهي مقامة مصنوعة مجنسة منها قوله: "كنت لفرط الهيام في بعض الأيام، وصدري ضيق، وفؤادي سبق، إلى الخضرة القاضية، والشمائل المرضية قد صرخت بالاحصار، وحرصت على الأصحار، فأجتزت في الخروج ببعض المروج"[3] وابن سلامة لا يكتفي بالجناس العادي البسيط بل يجنح إلى الجناس الصناعي الملفق الذي

(1)-ينظر، ابن الأثير، المثل السائر، 1/ 257.

(2)-العماد الكاتب، الخريدة قسم شعراء الشام، 2/ 497.

(3)-ابن الأثير، المثل السائر، 1/ 257.

تستخدم فيه الصور المعقدة، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في إحدى رسائله، والتي قال العماد عنها في مقدمتها، أنها من التجنيس المنعكس، فكل كلمة مشتقة من أختها، وهي: "فالنفس بعقود التدرع حالية، ولعقود التعذر حائلة، ومن الودائع مالية، وإلى الدواعي المزعجة مائلة، وفي بحار الحمد راسية، وفي رحاب المدح سائرة، تجمع إلى مواصلة القمر، وتحجم عن مصاولة القدم، لتكف بأظفار الأمل، وتفك بأظفار الألم، فهل كامل يعني، ومالك يعين"[1] ففي هذا النص اشتركت كل كلمة مع سابقتها في الحروف، فكلمة بعقود في الفقرة الأولى تعود مع شيء من القلب والعكس لتصبح قعود والتذرع تصبح التعذر، وحاليه تصبح حائلة، وهكذا يستمر الكاتب على هذا النحو في السجعات التالية إلى آخر رسالته مشاركاً في الحروف بين كل كلمة وأخرى، ومن فرط بلاغته بفن الجناس وتكلفه به محاولاً إبراز مقدمته وبراعته من حيث استخدامه للجناس المنعكس، واشتقاقه لكل كلمة في العبارة من أختها في العبارة السابقة لها قوله في إحدى رسائله: "فأنس أجمالاً تزم، وأحمالاً تضن، وأحوالاً تهول، وأهوالاً تحول، وأوجالاً تصول وأصوالاً تجول"[2]، ومن خصائص نثره الإغراب والتعقيد، فقد اتّبع طريقة أبي العلاء المعري في إغرابه لتأثره به، ومن الأمثلة على شدة التعقيد والغرابة في ألفاظه، أنشأ خطبة من الحروف المهملة قال فيها: "ألا مسدد أراد وصل الأراد، وداوم مواصلة الأوراد، وأعد صلاة الأسحار لحصول صلة المحار، وحاول دار السلام، ومحل الإكرام، دار سر أهلها، ودام

(1)-العماد الكاتب، الخريدة قسم شعراء الشام، 2/ 515.

(2)-المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

أكلها لاهم ولا هرم ولا علل ولا ألم لا كدر ولا أكادر"[1] وكذا أنشأ رسالة من الحروف المهملة منها قوله : "مم عراه الملل، وما عداه الأمل، حرس الله سموه وأدام علوه، وحاطه وكلاه وأكرمه ورعاه"[2]، ولإفراطه في التعقيد والإغراب ألف مقامة كبيرة، وأفتخر بأنّه ذكر فيها مائة وأربعين كلمة غريبة كذلك تأثر بالحريري صاحب المقامات فوضع رسالة سينية، وكذلك وضع رسالة فقهية، قلد فيها المقامة الفقهية عند الحريري، وهي التي تعرف بالمقامة الطيبية، ومن شدة إغرابه في الألفاظ أنّه كان يخلق صلة بين الشعر والنثر، من ذلك هذا المقطع الذي أورده له العماد الأصفهاني، وقدم له بقوله: "ثم أن الشيخ رجع فنثر بعد الإشاد وسجع وذكر كلمات استغربتها، فاستعرتها منه، وكتبتها، وهي: الأيام تكدر، لكن المرء يقدر، أحلام سعودها فقلت: أراك قد تكلفتها، ففيم هكذا ألقتها قال لأنها در منظم أن قلبت، وشعر منظوم إن قلبت، وشحنتها بزينتين، وصححتها كل بيت من قرينتين"[3] قال عمر موسى باشا: لو قلبت فقرنت عكساً لكانت قال قصيدة من بحر المجتث مؤلفة من أثنى عشر بيتاً.

يقـــــدر المـــــرء لكـــــن تكـــــــدر الأيـــــــام

وعودهـــــــا المـــــين دار ســــــــعودها أحـــــــلام

2- العماد الكاتب:

اسمه ونسبه:

([1])-المصدر نفسه، 2/ 485.

([2])-شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص 305.

([3])-عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، ص 741.

هو أبو عبد الله محمد بن محمد صفي الدين بن نفيس الدين بن حامد بن آله، الملقب بعماد الدين، والمعروف بابن أخي العزيز.

ولد يوم الاثنين الثاني من شهر جمادى الآخرة سنة 519 هـ في أسرة فارسية عريقة تقيم بأصفهان، وقدم بغداد شاباً مع أفراد أسرته بعد مقتل عمّه، وإلحاق الأذى بأبيه، ومصادرة أموالهما من قبل السلاجقة، والتحق بالمدرسة النظامية، وانتظم في سلك طلبتها، فأخذ العلم عن جماعة من علماء عصره منهم: أبو منصور سعيد بن الرزاز، وأبو الحسن علي بن هبة الله ابن عبد الله وأبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون، وأبو المبارك بن علي السمرقندي وغيرهم كثير، وأجاز له أبو القاسم بن الحصين، وأبو عبد الله الفراوي، ثم رجع إلى أصبهان، وتفقه على المذهب الشافعي على الشيخ محمد بن عبد اللطيف الخجندي، ثم رجع إلى بغداد مرة ثانية واشتغل بالكتابة، فبرع فيها ونبغ.

اتصل عماد الدين بالوزير عون الدين بن هبيرة، فولاه نظر واسط، ثم نظر البصرة، وبعد موت الوزير المذكور ضعف أمر العماد، فرحل إلى الشام، واتصل بنور الدين محمود حاكم الدولة الزنكية الذي أنزله بالمدرسة النورية الشافعية التي نسبت إليه فيما بعد، فأصبحت تعرف بالعمادية، وفوض إليه التدريس بها، ثم استقدمه للكتابة بديوان الإنشاء وجعله صاحب سره، وسيره رسولاً إلى الخليفة المستجد ببغداد، ثم صار مشرفاً لديوان الإنشاء سنة 568 هـ مع استمراره في كتابة الإنشاء وبعد وفاة نور الدين محمود، وتولى ابنه إسماعيل الحكم وكان صغيراً لا يدرك ما يجري حوله، وتحكم نفر من كبار القادة في الحكم ممن يكرهون العماد فضايقوه وهددوه، فترك الشام هارباً إلى بغداد إلا

أنه مرض في طريقه إليها، ولما سمع نبأ استيلاء صلاح الدين الأيوبي سنة 570 هعلى دمشق عاد إلى الشام، واتصل بصلاح الدين الذي استكتبه في ديوان المكاتبات والرسائل، وصار يضاهي الوزراء، ومرتبته تضاهي مرتبة القاضي الفاضل.

لازم العماد صلاح الدين في حله وترحاله، قال عماد الدين: "لزمت خدمته أرحل لرحليه، وأنزل لنزوله"[1] وكانت بينه وبين القاضي الفاضل محاورات ومراسلات، فقد حكي عنه أنه قال يوماً للقاضي الفاضل: سر فلا كبابك الفرس، فأجابه الفاضل : دام علا العماد، وكلا العبارتين مما يقرأ طردا وعكساً واجتمعا يوماً في موكب السلطان، وقد أثارت الخيل الغبار لكثرة الفرسان، فتعجب الفاضل من ذلك، فأنشد العماد:

أمـــــا الغبـــــار فإنّـــــه ممـــــا أثارتـــــه السنـــــابك
والجــــو منــــه مظــــلم لــــكن أنارتــــه السنــــابك
يــــا دهــــراً لي عبــــد الــــرحيــم فلســت أخشى مــس نابــك[2]

فأتفق له الجناس في الأبيات الثلاثة مكتسباً حلة من الحسن والجمال، وبعد وفاة صلاح الدين الأيوبي لزم العماد بيته، وتفرغ للتصنيف والتأليف حتى وفاته أوائل شهر رمضان سنة 597 هـ.

(1)-أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتبن، 1/ 247.

(2)-ينظر الأبيات، ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 19/ 18.

آثاره:

لم يشغل العماد وقته كله بالأعمال الرسمية في شؤون الدولة، وما يتعلق بها بل ألّف وصنّف مؤلّفات شعرية، وأخرى نثرية لعلّ من أهمها:

1- البرق الشامي: وهو كتاب في التاريخ بدأه بذكر نفسه ورحلته من العراق إلى الشام، وأخباره مع السلطان نور الدين محمود زنكي، كما تحدث فيه كذلك عن صلاح الدين الأيوبي وفتوحاته، وحوادث بلاد الشام في أيامه وشبهه بالبرق الخاطف لسرعة مرور تلك الأيام، وسرعة انقضائها.

2- خطفة البارق، وعطفة الشارق: وهو كتاب تاريخي ذكر فيه شيئاً من حوادث سنة 593 هـ إلى سنة وفاة مؤلفه.

3- السيل على الذيل: في مجلدات عدة جعله ذيلاً على كتابه الخريدة، استدراك ما فاته ترجمته في كتابه الخريدة.

4- الفتح القسي في الفتح القدسي: في مجلدين بدأ فيه من سنة 583 هـ، وفيه أخبار صلاح الدين الأيوبي، وفتحه بيت المقدس، والكتاب مسجع العبارة، يكاد يكون مغلقاً على قراء هذا العصر لغرابة أسلوبه، وصعوبة ألفاظه.

5- أخبار الملوك السلجوقية.

6- ديوان رسائل في مجلدات عدة: وهو مجموع رسائل العماد الديوانية وهو مخطوط بمكتبة نور العثمانية.

7- ديوان شعر صغير ذو بيت في معنى الجهاد.

8- ديوان شعر في أربعة مجلدات: وقد جمعه وحققه وقدم له ناظم رشيد، وطبع بمطابع الجامعة الموصل سنة 1983م.

9- رسالة العتبى والعقبى: ذكر فيها ما جرى من حوادث بعد وفاة صلاح الدين إلى سنة 592 هـ.

10- خريدة القصر وجريدة أهل العصر: وقد ترجم العماد فيها لمعظم شعراء القرن السادس الهجري حتى سنة 572 هـ، وهي السنة التي انتهى فيها من تأليفها، وقد جعلها العماد ذيلاً على زينة الدهر لأبي المعالي سعد بن علي الحضري الوراق، ويقع الكتاب في عشرة مجلدات ضمّت شعراء العراق، والشام، ومصر، والجزيرة العربية، وصقلية، والمغرب والأندلس، ويرجع أهمية كتاب الخريدة لكونه غطّى فترة زمنية تصل إلى ثلاثة أرباع القرن، وكذلك غطّت تراجمه مساحة مكانة واسعة مترامية الأطراف من البلاد الإسلامية.

وكان العماد أرسل نسخة من كتاب الخريدة إلى القاضي الفاضل بعد الانتهاء من تأليفه، فوقف عليه الفاضل، وكان في ثمانية أجزاء فقال الفاضل: أين الآخران؛ لأنه سمّاه خريدة يعني عشرة، وهذه ثمانية أجزاء؛ لأنّ (ده) بالفارسية تعني عشرة، ولهذا قال ابن سناء الملك.

خريــدة أفيــه مــن نتنهــا كأنّهــا مــن بعــض أنفاســه

نصــفها الأول في ذقنــه ونصــفها الآخــر في رأســه

11- نحلة الرحلة وحيلة العطلة: ذكر فيه أخبار رحلته من الشام إلى مصر بعد موت صلاح الدين، ثم عودته إلى الشام، وذكر كذلك ما وقع من خلافات بين ا لقادة بعد وفاة السلطان المذكور.

12- نصرة الفطرة وعصرة القطرة: صنفه في أخبار الدولة السلجوقية، وكبار وزرائها وأعيانها، وقد اختصره الفتح بن علي البنداري في جزء سماه زبدة النصرة، ونخبة العصرة وعُرف بتاريخ آل سلجوق.

13- عرّب العماد كتاب كيمياء السعادة: تأليف الإمام أبي حامد الغزالي بطلب من القاضي الفاضل.

14- كذلك كان للعماد رسائل التزام في واحدة منها حرف الدال في كل كلمة، والضاد في أخرى، والميم في ثالثة، والشين في رابعة، وأشياء من هذا القبيل الذي لا يقبله العقل، وتنكره الأذن.

وفي الختام ذكر مؤلفاته نذكر ما قاله صاحبها عنها:

هي كتبي فليس تصلح من بعدي لغير العطار والإسكافي
هي أمّا مزاود للعقاقير وإمّا بطاين للخفاف

خصائص نثره:

لقد أشاد الذين ترجموا للعماد الكاتب بنبوغه، وتفوقه على أقرانه، فقد برع في الكتابة، وأجاد فيها حتى زاحم القاضي الفاضل بمنكب ضخم، وكان ينشىء الرسائل بالفارسية أيضا، فيجيد فيها إجادته بالعربية.

وأسلوب العماد الكاتب لا يختلف عن أساليب غيره من الكتاب فظاهرة الاقتباس من القرآن الكريم، وإيراد الآيات بالنص، أو بالمعنى ظاهرة عامة عند معظم كتاب هذين القرنين، ومن الأمثلة على الاقتباس في رسائله من القرآن الكريم بالنص ما ورد في رسالة بشارة بفتح القدس قوله: "وقمع من كان يقول

﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾[1] بمن يقول ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[2] ومن روائع اقتباسه قوله في الرسالة نفسها" فلما بشر بكسر الفرنج، وفتح طبرية، وعكا، والظفر الذي أضحك الأولياء، وأزعج الأعداء، وأبكى وتلا عليه ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾[3] و﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾[4] كان وصل إلى السوادة في سواده وبياضه، وكذلك كان العماد يورد الآية، أو الآيتين بالمعنى دون النص عليها بصيغتها، أو بلفظها ومن الأمثلة على ذلك قوله في رسالة بشارة بفتح بيت القدس: "وإذا تسلمناها تسلمنا بإذن الله كل بلد للفرنج باق، وماهم من عذاب الله الواقع بهم واق"[5] فقد أخذه من قول الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾[6] ومن الأمثلة كذلك على إيراده الآيات بالمعنى قوله في إحدى رسائله: فكانت تلك النار على الكفر ضراماً وعلى الإسلام برداً وسلاماً، فقد أخذه من قول الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[7] كذلك كان العماد يقتبس من الحديث الشريف بالنص، وبالمعنى ومن الأمثلة على إيراد الحديث الشريف بالمعنى قوله في الرسالة السالفة الذكر " فالبيت الحرام مساو للبيت المقدس، مفدى منا كلاهما من المهج والأنفس بالأنفس، وأنه من المساجد الثلاثة التي تشدّ إليها الرحال، فقد أخذه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل:

([1])-سورة المائدة من الآية 73.

([2])-سورة الإخلاص، من الآية 1.

([3])-سورة المؤمنون، الآية 1.

([4])-سورة الأعلى، الآية 14.

([5])-العماد الكاتب، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 184.

([6])-سورة المعارج، الآيتان 1، 2.

([7])-سورة الأنبياء، الآية 69.

لا تشد الرجال إلاّ إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام، ومسجدي هذا والمسجد الأقصى"[1]، ومن سمات نثره كذلك عنايته بفن السجع، فكتابات العماد جلّها مبنية على هذا المحسن البديعي، فمثلاً كتابه الفتح القدسي في الفتح القدسي كله مبنى على السجع، من ذلك حديثه عن السلطان صلاح الدين في فتح بيت المقدس قوله:" ثم رحل من عسقلان للقدس طالباً، وبالعزم غالباً، وللنصر مصاحباً، ولذيل العز ساحباً، قد أصحب ريض مناه، وأخصب روض عناه، وأصبح رائج الرجاء أرج الأرجاء، سيب العرف طيب العرف، ظاهر اليد، قاهر الأيد، سنى عسكره قد فاض بالفضاء فضاء، وملأ فأفاض الآلاء"[2] وكان العماد ينوع في سجعه بين السجع القصير الفقرات، والطويل الفقرات ليثبت مقدرته، وبراعته الفنية، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في كتاب له يخبر عن وصول ملك الألمان بجيوشه على شواطئ الشام فقال: "وقد آن للإسلام أن يسلم، وللإيمان أن يعدم، وللتثليث أن يعلن، وللتوحيد أن يكتم، وللكفر أن يقدم، وللهدى أن يحجم فقد قذف البحر من الفرنج بزبده، والبر أتى أتيه من كل بلد للكفر بسبده ولبده، ووصل الألماني المخذول، بعدده وعدده، وهذا خطب قد وهم، وعدو قد هجم، وشر قد نجم[3]" وهكذا يستمر العماد في رسالته بانياً أسلوبه على السجع القصير الفقرات مع التوشية بالجناس الناقص والمعكوس أحياناً أخرى، ومن رسائله المبنية على الزخارف اللفظية والبديعية تلك الرسالة التي كتبها إلى شيخ الصناعة في زمانه القاضي الفاضل سنـــة 574 هـ، عندما حج جاء فيها:

([1])-القسطلاني، إرشاد الساري إلى صحيح بخاري، 6/ 105، من طريق أبي هريرة.

([2])-العماد الكاتب، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 36.

([3])-المرجع نفسه، ص 198.

(طوبي للحجر والحجون من ذي الحجر والحجا، منيل الجدا، ومنير الدجي ولندي الكعبة من كعبة الندى، وللهدايا المشعرات من مشعر الهدى، وللمقام الكريم من مقام الكريم، ومن حاطم فقار الفقر للحطيم، ومتى روئى هرم في الحرم، وحاتم الكرم لمائح زمزم؟ ومتى ركب البحر البحر، وسلك البر البر؟ لقد عاد قس إلى عكاظه، وعاد قيس لحفاظه، ويا عجباً لكعبة يقصدها كعبة الفضل والأفضال، ولقبلة يستقبلها قبلة القبول والإقبال والسلام، وقد استحسنها ابن خلكان قائلاً: لقد أبدع في هذه الرسالة، وما أودعها من الصناعة[1] إلاً أن اليافعي ذمّها بقوله: فليست بحسنة من جهة الدين، ولا من جهة البيان، فإنّه بالغ فيها مبالغة مجرحة لشعائر الله تعالى المنظمة إلى حد الامتهان[2].

ومن خصائص نثره المبالغة في استخدام فن الجناس، وإفراطه فيه حتى عدّ من المآخذ عليه، فقد قال السبكي في طبقاته: "وأكثر ما يعاب عليه كثرة استعماله للجناس لاسيما في النثر بحيث تضيق به الأنفاق، ويكاد لا يترك للفظه الواحدة مجالاً، وإنما يحسن الجناس إذ خف على القلب واللسان، ولم يتعد المرتين"[3] وكذلك طبع ذوقه على الإسراف في السجع والجناس، والمقابلات اللفظية إلى درجة قبيحة والخروج عن موضوع الحديث أحياناً إلى شيء غريب، ولمبالغته في الجناس وإسرافه فيه نراه يجانس حتى في أسماء كتبه مثل: الفتح القسي في الفتح القدسي، خريدة القصر وجريرة أهل العصر إلى آخره، ومن الأمثلة على استخدامه الجناس ما ورد في رسالة تعزية كتبها العماد الكاتب قال

(1)-ينظر، ابن خلكان، وفيات الأعيان، 5/ 151.

(2)-اليافعي، مرآة الجنان، 3/ 494.

(3)-طبقات الشافعية، 4/ 98.

فيها: أصدر العبد هذه الخدمة، وصدره مشروح بالولاء، وقلبه معمور بالصفاء، ويده مرفوعة إلى السماء للابتهال بالدعاء، ولسانه ناطق بشكر النعماء، فقد جانس الكاتب جناساً ناقصاً بين الألفاظ: الصفاء والسماء، الدعاء والنعماء، والرسالة كلها مبنية على الجناس، ومن خصائص نثره كذلك عنايته بالطباق، ومن الأمثلة على ذلك قوله في رسالة ديوانية على لسان السلطان بعث بها إلى ديوان الخلافة ببغداد جاء فيها قوله: وعبد الله في البيت المقدس سراً وجهراً، وملكت بلاد الأردن غوراً ونجداً، وبراً وبحراً، وملئت إسلاماً وقد كانت ملئت كفراً"[1]، وفي الجملة الأخيرة مقابلة، حيث قابل بين انتشار الإسلام، وانكماش الكفر، كذلك كان العماد يكثر من رد العجز على الصدر مثل قوله:" وسر أولياءه، وأولى مسرته، وأقدر يده أيد قدرته، وآزر دولته وأدال مؤازرته، وبسط مكنته ومكن بسطته، وأسعد جده وأجد سعادته، وأراد نجحه وأنجح إرادته، وأجل جيله وسر أسرته، وحاط حماه وحمى حوطته، ولازال معرفته موال ومواليه معروفاً، ووصفه حسناً، وإحسانه موصوفاً، وألفه بارا وباره مألوفاً، وعطفه كريم وكرمه معطوفاً"[2].

وهكذا يستمر الكاتب على هذا الشكل، وقلما يخلو كلامه من هذا الغث والضرب الرث، وقد ردّ العجز على الصدر في أكثر جمله مثل: مسرته على سر، وقدرته على أقدر، ومؤازرته على آزر، وبسطته على بسط... وهكذا يستمر على هذا الشكل إلى آخر النص.

([1])-ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 19/ 22.

([2])-الصفدي، الوافي بالوفيات،1/ 134.

أسباب ضعف الكتاب

أخذ فن الكتابة في الضعف ابتداءً من حكم الأعاجم لمصر والشام، وقد أكّد ضعفها ابن شيث القرشي في كتابه معالم الكتابة بقوله: "ألفتُ كتاباً في رسوم الكتابة التي سقطت في هذا العصر تاؤها، وطمست أنباؤها، فالدارج على سبيلها دارج، والداخل عن طريقها خارج، والحاسب فيها راجم بظنه وحاصب، وحاطب الليل لا يأمن من المعاطب"[1]، ولذلك سأوجز أهم الأسباب التي أدت إلى ضعف الكتابة خلال هذين القرنين.

1- تولّى حكم مصر والشام، حكام وسلاطين غير عرب وكان هؤلاء الحكام لا يفهمون الأدب العربي ذلك لم يهتموا به بسبب ضعف فهمهم للأدب العربي، وقلّة حاجتهم إليه.

2- الحروب والصراعات: أدى الصراع الدائر بين العرب والصليبيين من جهة، وبين العرب والتتار من جهة أخرى في المشرق العربي، وكذلك ما حدث في الأندلس إلى عزلة أدباء مصر والشام، فلم تكن لهم رحلات علمية الأمر الذي جعلهم يعيشون محصورين في إقليمي مصر والشام التي كانت تخضع لمؤثرات أدبية واحدة.

---

(1)-عبد الرحمن بن علي بن شيث القرشي، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، تحقيق محمد حسين شمس الدين، ص 23.

3- اختلاط العرب بغيرهم من الأمم الأخرى مثل الأكراد، والأتراك، والمماليك، والسلاجقة مما نتج عنه دخول كثير من الألفاظ الأعجمية سبب في ضعف اللغة العربية الفصيحة.

4- عدم تشجيع بعض الحكام والسلاطين للشعراء والأدباء الأمر الذي جعلهم لا يلقون أي تشجيع إلاً في القليل النادر وبذلك حرم هؤلاء الشعراء والأدباء من أهم دوافعه، وهو المكافأة.

5- الإغراق في المحسنات البديعية، فقد فتن كتّاب هذا العصر بفن البديع، وأكثروا منه ولاسيما الجناس الذي أسرفوا في استخدامه حتى "ضاقت بترديده الأنفاس، وأصبح الكلام من القلوب وحشيا، ومن الأسماع حوشياً.

6- خروج عدد من الكتّاب عن الحد المعقول في تكلف أوجه البلاغة المختلفة فجاءوا بالمستحيل في العقل والممجوج أحياناً في الذوق.

7- الاهتمام بالشكل: أكثر الأدباء من الاهتمام بالشكل، ولم يلقوا أي بال للمضمون لقلّة المحصول الثقافي، فأصبح المعنى عندهم تابعاً للفظ على عكس ما كان عليه، وهو أن يكون اللفظ تابعاً للمعنى، وحتى القاضي الفاضل أشهر كتّاب هذا العصر لم يجد معنى غزيراً فهوّش بالبديع.

8- عزوف الناشئين والمتأدبين عن تعلم وتعليم اللغة العربية وآدابها وسبر أغوارها، والتعمق في معانيها السامية، وفساد الأذواق، وضعف الملكات عند الأدباء والنقاد معاً.

الفصل الرابع
الخصائص الفنية للنثر

البناء الفني

أولا، البدء والعرض والختام:

جرى العادة عند كتّاب مصر والشام خلال القرنين السادس والسابع والهجريين على افتتاح رسائلهم بالبسملة اقتداء بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل: كل أمر ذي بال لا يبتدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم، فهو أبتر[1] ثم بحمد الله والثناء عليه، وبالصلاة والسلام على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، وبالدعاء للديوان العزيز، وكان كتّاب العصر الفاطمي يلحقون بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة على سيّدنا علي كرم الله وجهه قائلين وعلى أخيه، وابن عمّه أبينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أول الأئمة الخلفاء[2] ثم يتبعون ذلك بذكر بعض معتقدات الشيعة الإسماعيلية، وحقهم في الإمامة غير أن بعض الرسائل، ولاسيما رسائل الفتوحات التي تحمل البشرى بفتح أو نصر غالباً ما تفتح بذكر آيات من القرآن الكريم حيث يعد من محاسن الافتتاح أن يبدأ الكتاب أو الرسالة بآيات من القرآن أو خبر من الأخبار النبوية، أو بيت من الشعر، ومن الأمثلة على ذلك كتاب بعث به العماد الكاتب إلى ديوان الخلافة ببغداد على لسان صلاح الدين الأيوبي افتتحه بقوله تعالى:

(1)-جلال الدين السيوطي، الجامع الصغير، 2/ 92.

(2)-القلقشندي، صبح الأعشى، 3/ 322.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ﴾(1)

ومن الأمثلة على براعة الاستهلال في رسائل البشرى كتاب بعث به ابن عبد الظاهر إلى الأمير شمس الدين آق سنقر جواباً عن كتاب بفتح النوبة افتتحه بقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾(2) أدام الله نعمة المجلس، ولا زالت عزائمه مرهوبة، وغنائمه مجلوبة"(3) أما بالنسبة للرسائل الإخوانية فليس لهم طريقة معينة في الابتداء بها فبعض رسائلهم الإخوانية يفتتح بالدعاء، وهو أكثر ما يقع في مكاتباتهم، والغالب في ذلك الدعاء للمجلس، كما كتب القاضي الفاضل إلى العماد الأصفهاني: "أدام الله أيام المجلس التي لحسنات المدل مديله، ولعثرات المقل مقيلة"(4)، ومن الأمثلة على الابتداء بالدعاء كذلك ما كتب ابن الأثير في التهنئة بعيد الأضحى قوله:"أنعم الله عيش المجلس السامي المولوي، وحيّاه بأمن سربه وإيناس شمعه"(5)، ومن الأمثلة على الابتداء بالدعاء في الرسائل الإخوانية كذلك قول محيي الدين بن عبد الظاهر في إحدى رسائله الإخوانية: "أطال الله بقاء سيدي الأعلى، ومفزعي في الجلي متممة عليه النعم، ميسرة لديه الهمم، أقول بدا أيدك الله، لقد أغشى الناظرين سناك، كما أعيا الطالبين مسعاك"(6) وقد تفتتح بعض الرسائل بالغرض من غير تقديم الدعاء، كما كتب العماد الأصفهاني

---

(1)-سورة النور من الآية 55.

(2)-سورة الإسراء من الآية 12.

(3)-ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، 2/ 180.

(4)-القلشندي، صبح الأعشى، 8/ 167.

(5)-رسائل ابن الأثير، ص 86.

(6)-القلقشندي، صبح الأعشى، 8/ 149.

يعتذر عن تأخر المكاتبات: "إن تأخرت مكاتباتي، فإن العذر معلوم، والأجر محتوم، والقلم مصدود، واللقم مصدود، والبلد محصول"[1].

أما التخلص من المقدمات إلى الغرض المطلوب، فكان على وجهين.

الوجه الأول: افتتاح الخطاب بعبارات، أو ألفاظ تدل على ابتدائه الكتاب، أو الرسالة نحو قولهم: أما بعد، أو وبعد، وكتابي إليك، أو كتاب أمير المؤمنين إليك، أو أصدر، أو صدرت، ونحو ذلك من الألفاظ المشابهة لها، مثلما كتب القاضي الفاضل عن السلطان صلاح الدين إلى برويل أحد ملوك الفرنج، وهو يومئذ مستول على بيت المقدس: أما بعد، خص الله الملك حافظ بيت المقدس، بالجد الصاعد، والسعد الساعد، والحظ الزائد والتوفيق الوارد، أو مثلما تخلّص محيي الدين بن عبد الظاهر من المقدمة إلى الغرض المطلوب بقوله في رسالة إلى آق سنقر جواباً عن كتاب بشرى بفتح النوبة: صدرت هذه المكاتبة على المجلس تثني على عزائمه التي واتت على كل أمر رشيد وأتت على كل جبار عنيد، أو قد يحدد الكاتب تاريخ رسالته، فيقول كتبت يوم كذا، أو وافق كذا سنة كذا، كذلك كان يفعل ابن الصيرفي في رسائله من ذلك قوله في إحدى: "وكتاب أمير المؤمنين إليك يوم كذا عيد الفطر من سنـــة 531 هـ الذي أمر الله فيه بما نهى عنه من قبله"[2].

أما الوجه الثاني للتخلص من المقدمات إلى الغرض المقصود فهو رد الجواب عن الرسائل الواردة، فكان الكاتب يذكر أنه يردّ على كتاب ورد إليه، أو رسالة

([1])-ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، 2/ 180.

([2])-القلقشندي، صبح الأعشى، 8/ 320.

مرسلة له يقول: وصلني، أو وردني، أو وافاني، أو بلغني، أو ألقي إليّ ونحو ذلك من الألفاظ المماثلة لها.

ومن الأمثلة على ذلك رسالة رد جواب للقاضي محيي الدين يحي بن محمد بن علي سنة 629 هـعند وصوله إلى مصر بعث بها إلى أحد إخوانه، قال فيها: "وردت رقعة سيدنا، أسعده الله بتوفيقه وأوضح في اكتساب الخيرات سبل طريقه"[1].

الخاتمة: هي آخر ما يطرق الأسماع منا لموضوع، أو هي آخر الكلام الذي يقف عليه الكاتب أو الخطيب، ويكون الاختتام بما يلائم موضوع الرسالة، أو الكتاب، ومن الأمثلة على ذلك رسالة بشرى بالفتح من إنشاء العماد الكاتب، حيث ختمها بما يلائم موضوع الرسالة بقوله: "وجددت بعهدها صفقة الإيمان، وبطل الناقوس بحق الأذان، وفتحت أبواب الجنان لأهلها، وأخرج منها أهل النيران، والحمد لله على هذا الإحسان حمداً مستمراً على مر الزمان"[2] أو تكون الخاتمة بحمد لله – تعالى- وبالصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم، وتارة تختم بالدعاء، وهو كثير كتب ورسائل القاضي الفاضل، حيث يختم رسائله بالأدعية مثل قوله: إن شاء الله وبالتعليق بالمشيئة، وختم ابن الصيرفي إحدى رسائله بالحمد قائلاً: "الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله الطاهرين وسلم تسليماً، حسبنا الله ونعم الوكيل، وختم ابن عبد الظاهر رسالته التواضع السالف قائلاً: "الحمد لله رب العالمين وصلى على سيدنا

([1])-المرجع نفسه، 14/ 252.

([2])-أبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين، 2/ 99.

محمد وآله وصحبه أجمعين"[1] وقد تكون الخاتمة في بعض أنواع الرسائل بذكر حكاية أو مثل مثلما فعل القاضي محيي الدين يحيى بن محمد بن على سنـــة 629 هـ، حيث ختمها بمثل قائلاً: سطرت هذه الأحرف إلى سيدنا ليوافق خبري عند أصحابه خبره، من يشتري سيفي، وهذا أثره وأعلم أنّها سيضرب بها في بابها المثل، وقد أوردها سعد وسعد مشتمل[2].

أما الخاتمة في الرسائل الديوانية فتختلف عن ذلك اختلافاً كبيراً، فقد تكون بالأمر بالعمل بما جاء فيها، أو الخطاب مع ذكر تاريخه، كما كتب ابن قادوس الدمياطي المتوفى سنة 551 هـ في رسالة ديوانية بمناسبة ركوب الخليفة لصلاة عيد الأضحى قائلاً: "فاعلم هذا واعمل به، وطالع مجلس النظر السيدي الأجلي بما اعتمده في ذلك إن شاء الله تعالى، وكتب في اليوم المذكور"[3].

أو قد تختم بعض الرسائل الديوانية بلفظ إن شاء الله تعالى، ومن هذا النوع أغلب خواتم رسائل القاضي الفاضل الديوانية، ومن الأمثلة على ذلك- وهي كثيرة- ما كتب به عن السلطان صلاح الدين يعتذر عن تأخّر المكاتبات، ويذكر له خبر صاحب القسطنطينية، وصاحب صقلية من ملوك النصرانية من الروم والفرنجة بقوله: ولم يجب إلى السلم، ولم يزعه أن عسكره، خذله الله مبار في البر وفي اليم إن شاء الله تعالى.

([1])-الصفدي، تمام المتون، ص 415

([2])-القلقشندي، صبح الأعشى، 14/ 262.

([3])-المرجع نفسه، 8/ 328

ثانيا، الاقتباس والتضمين:

سبق إن ذكرت أن كتّاب مصر والشام خلال هذين القرنين حرصوا على الاقتباس من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وغلب على كتاباتهم النثرية الأسلوب المرصع الذي رُصّع بالأخبار، والأمثال، والأشعار، وآيات من القرآن الكريم، وأحاديث النبي عليه الصلاة والسلام إلى غير ذلك من النحو والعروض، وحل منظوم أبيات القريض[1]، ولم تخل جميع الرسائل لدى كتّاب هذا العصر من ظاهرة الاقتباس من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف سواء أكانت رسائل ديوانية أم إخوانية، أم أدبية؛ لأن القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف هما أعلى مثال للبلاغة والفصاحة، ولذلك كان لهما أثرهما في أساليبهم، وقد كان هذا الاقتباس على وجهين:

الوجه الأول: إيراد الآيات القرآنية بنصها وصيغتها، وهو ما يعرف بالاقتباس، ومن الأمثلة على ذلك قول الأمير يغمر بن عيسى المعروف بابن العكبري في رسالة إخوانية له: أحسن الطريف، وصدر منه الفعل الظريف، ولم يبق عليه للدم مكان ﴿**هَلْ جَزَاء الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ**﴾[2] ومن روائع الاقتباس من القرآن قول العماد الكاتب في رسالة بشارة بفتح القدس على لسان السلطان صلاح الدين بعث بها إلى ديوان الخلافة ببغداد: وتلك ﴿**سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً**﴾ سخرها الله على الكفار ﴿**فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى**

([1])-ينظر، أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي، أحكام صنعة الكلام، 130.

([2])-سورة الرحمن، الآية 60، وينظر. العماد الكاتب، خريدة القصر وجريدة أهل العصر قسم شعراء الشام، 370/1.

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[1] ومن الأمثلة على إيراد الآيات بالنص ما ورد في كتاب لابن الأثير بعث به إلى الملك الأشرف موسى بن أيوب قال فيه: (فكم لذلك السيف على الإسلام من يد لا يؤدي شكرها اليد واللسان، ولا يقوم بالجزاء عليها أحد إلاّ الله الذي قال: ﴿هَلْ جَزَاء الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ﴾[2] ومن الأمثلة على إيراد الآيات القرآنية بالنص قول ابن الأثير في تقليد لمنصب الحسبة: وقالو: ربنا الله ثم استقاموا، ومن عداهم شعب دانوا أديانا، وعبدوا من الأهواء أوثانا، وأتبعوا ما لم ينزل به الله سلطاناً ﴿وَلَوْ نَشَاء لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾[3]

الوجه الثاني: إيراد الآيات القرآنية بالمعنى دون النص عليها بلفظها أو بصيغتها، وهو ما يسمى بالاقتباس فقد كان الكتّاب يقومون بنثر آيات من القرآن الكريم في رسائلهم على طريقة ابن العميد في نثر أبيات القريب فالكاتب يدمج الآية أو الآيتين من القرآن الكريم في كلامه، فتصبح وكأنها جزء من رسالته، ومن الأمثلة على الإيراد بالمعنى ما ورد في رسالة بشارة بفتح القدس من إنشاء ضياء الدين بن الأثير قوله: " وقال الأقصى سبحان الذي أسرى إليّ بجنده، كما أسرى بعبده، وأعاد لي عهود الفتح بهذا الفتح الذي أتى من بعده"[4].

([1])-سورة الحاقة، الآية 7.

([2])-سورة الرحمن، الآية 60، وينظر ، النص في رسائل ابن الأثير، ص 58.

([3])-سورة محمد، الآية 30.

([4])-ضياء الدين بن الأثير، المثل السابر، 2/ 368.

أخذ هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾(1).

ومن الأمثلة على إيراد الآيات بالمعنى كذلك قول محيي الدين عبد الظاهر في إحدى رسائله الإخوانية: وعندك أنك تأكل لحمي ميتاً، وعندي أنّي لا استحل أن آكل لك لقمة.

أخذه من قول الله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾(2).

ومن الأمثلة على إيراد الآيات بالمعنى كذلك ما ورد في رسالة وصف حصن الكرك للقاضي الفاضل جاء فيها قوله: عذاب الله بالحصن وأهله واقع ماله من دافع، وأنّ دليل النصر قد ظهر، وما دونه من مانع، فقد أخذه من قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾(3).

ومن كتاب جواب للقاضي محيي الدين بن عبد الظاهر عن كتاب بفتح التوبة قال فيه: فالحمد لله الذي صبحتهم عزائم المجلس بالويل، وعلى أن أولج النهار من السيف منهم في الليل، وعلى أن رد حرابهم إلى نحورهم، وجعل تدبيرهم في تدميرهم، وبين خيط السيف الأبيض من الخيط الأسود من فجر فجورهم.

---

(1)-سورة الإسراء، الآية 1.

(2)-سورة الحجرات، من الآية 12.

(3)-سورة المعارج، الآيتان 1 و 2.

انظر إلى هذه القطعة القصيرة، وعلى روائع نثر الآيات القرآنية التي قام بها ابن عبد الظاهر حيث نثر آيات من سورتين، فقد أخذه من قول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الَمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1] وكذلك أخذ قول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾[2] وكان الاقتباس من الحديث الشريف النبوي كذلك على وجهين:

الأول إيراد الحديث بنصّه كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن الأمثلة على ذلك رسالة تهنئة بقدوم شهر رمضان من إنشاء ابن الأثير قال النبي صلى الله عليه وسلم: من كان يؤمن بالله واليوم الأخر فليكرم ضيفه) [3] وشهر رمضان ضيف كريم ينبغي أن يحتفل له في الكرامة، وأن يستهل هلاله بدراً كاملاً، ورفع عن التشبيه بقلامة، وإذا مضى اتبع بست من شوال تمسكاً به في دار الإقامة"[4] أورد الكاتب حديثاً بنصه، كما أورد حديثاً بالمعنى أخذه من قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (من صام رمضان ثم اتبعه ستاً من شوال فذاك صيام الدهر) [5]، ومن الأمثلة على الاقتباس من الحديث بالنص كذلك ما ورد في تقليد بمنصب الحسبة من إنشاء ضياء الدين بن الأثير قوله: وقد ينقلب

([1])-سورة آل عمران، الآية 27

([2])-سورة البقرة، من الآية 187.

([3])-سنن ابن ماجة، 2/ 1212.

([4])-رسائل ابن الأثير، ص82.

([5])-عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، 3/ 290.

الحلال فيصير حراماً، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تبيعوا القينات المغنيات، ولا تشتروهن، ولا تعلموهن، ولا خير في تجارة فيهن، وثمنهن حرام"[1]، وكذلك كان الكتّاب يأخذون الحديث الشريف بالمعنى، ويضعونه في الموضع الملائم له في رسائلهم، ومن الأمثلة على ذلك قول ابن الأثير في إحدى رسائله: إذا تخلق من حديث الرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام (إذا كان الماء قلتين لم يحمل خبثاً)[2].

ثالثا، التنويع بين الشعر والنثر:

كان كتّاب مصر والشام يحرصون على تضمين رسائلهم أبياتاً، أو قصائد شعرية يفتتحون، أو يضمنون بها رسائلهم حسب ما يقتضيه حال الخطاب، وما يلائم سياق الرسالة، وكانوا يفعلون ذلك للتدليل على ما يسوقونه من معان، أو ما يستشهدون به من الشعر، فالكاتب المجيد منهم كثيراً ما يضمن رسائله بعضاً من شعره أو من شعر غيره، وكان هذا التضمين على صورتين: الأولى: افتتاح الرسائل بأبيات من شعر الكاتب أو من شعر غيره من الشعراء.

والثانية: تضمين رسائلهم أبياتاً أو قصائد شعرية من نظمهم، أو من نظم غيرهم في أكثر الأحيان بغرض زيادة قيمتها الأدبية، وتكاد تخلو جميع الرسائل التي تصدر عن دواوين الإنشاء بكافة أنواعها من هذه السمة، وتبدو واضحة في جميع أنواع الرسائل الاخوانية، والوصفية، والأدبية ومن الأمثلة على ذلك رسالة القاسم بن القاسم بن عمر الواسطى وهي رسالة فيما أخذ على ابن

---

(1)-ابن الأثير، المثل السائر، 2/ 379.

(2)-سنن الترمذي، 1/ 85.

النابلسي الشاعر في قصيدة نظمها في الإمام الناصر لدين الله أبي العباس قال فيها: "وأفوض أمري إلى الله، أفي كل سحابة أراع برعد؟ وفي كل واد بنو سعد.

واني شـــقي باللئـــام ولا تـــرى   شـقياً بهـم إلا كـــريم الشـــمائل

لقد تحككت العقرب بالأفعى، واستنت الفصال حتى القرعى

وطاولــت الأرض السـماء سـفاهة   وفـاخرت الشـهب الحصـا والجنـادل

وما ذلك التيه والصلف؟ والتجاوزُ للحدَّ والسّرَفُ إلا لأنّه كلما جر جريراً اعتقد أنّه قد جر جريراً"[1] ومن الأمثلة على التنويع بين الشعر والنثر كذلك ما ورد في رسالة النسر والبلبل لمحمد بن حسان بن أحمد بن الحسن بن الخضر قوله: "والليل قد شابت ذوائبه، وابيضت قمته، وانهزم زنج الظلماء من صولة روم الضياء.

والفجـر مثـل عـذار مـن صـارت له   سـتون عامــاً بعــد حســن ســواده

أو ثغــر محبــوب تـــبسم في الدجى   إذ زار مـــن يهـــواه بعـــد بعـــاده

وعلا حتى صار روحاً لأجساد السحب، ونديماً لدراري الشهب، وعديلاً للأفلاك، ونزيلاً للأملاك.

فكأنّــه للشــمس جســم والســهى   عـــين، وللمـــريخ قلـــب يخفـــق

ولكـــن نجـــم في الســـماء شرارة   تـــردي شـــياطين الرجـــوم وتحـــرق

غابـــوا لمطلعـــه إليهـــم واختفـــوا   ورأوه يجـــمع نفســـه فتفرقـــوا

كأنّ أجنحته ركبت من العواصف، واستلبت من البروق الخواطف، وأخذت من رمز الألفاظ واستعيرت من غمز الألحاظ.

([1])-ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 6/ 299.

كأنهـــا مقـــــلة الحبيـــــب إذا خـــاف حضـــور الرقيـــب أو حـــذراً
أوحى بهـــا والعـــــيون ترمقـــــه وهـــــما إلى مـــن يحبـــه فـــدرى

منفرداً في طريق لبّه انفراد البدر متوحداً في مضيق أربه توحد ليلة القدر[1]" وشاعت في هذا العصر طريقة نثر الشعر (حل المنظوم) وقد كانت هذه الطريقة شائعة فبل هذا العصر، فأبو هلال العسكري يفرد باباً يتحدث فيه عن حسن الأخذ، وحل المنظوم، وقد عرفت هذه الطريقة فيما بعد بطريقة ابن العميد في نثر الأشعار، وكان كتّاب هذا العصر ينثرون أبياتاً من الشعر، ويدخلونها في مضمون عباراتهم من ذلك نثر ابن الأثير في معرض حديثه عن فتح بيت المقدس في رسالة بعث بها إلى ديوان الخلافة في بغداد على لسان السلطان قائلاً: "وقد سلفت منها آيات تتمايل في أشباهها وأضرابها، واستؤنف لها الآن واحدة تدعى بأمن كتابها، وهي فتح البيت المقدس الذي تفتحت له أبواب السماء فابن الأثير حل منظوم بيت شعر لأبي تمام في فتح عمورية وهو قوله:

فـــتح تفـــتح أبـــواب الســـماء له وتـــبرز الأرض في أثوابهـــا القشـــب

كذلك تحدث ابن الأثير عن المنجمين قائلاً: "ولما ظفر به الخادم، لم يكن لأهل النجامة فيه قول يرد كذابه، ولا يقبل صوابه، والشهب طالعة على ذوات السروج أصدق نبأ من الشهب الطالعة من ذوات البروج على إنّهما وإن اتفقا رجماً فإنهما يختلفان علماً، فعلم هذه يسأل عنه ثغر الأعناق، وعلم هذه يسأل

[1]-العماد الكاتب، الخريدة قسم شعراء الشام، 1/ 240.

عنه في بطون الأوراق[1] ففي النص أبيات محلولة من منظوم أبي تمام في فتح عمورية، والأبيات هي:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الأرماح لامعة بين الخميسين لا في السبعة الشهب
أين الرواية أم أين النجوم وما صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
عجائباً زعموا الأيام مجفلة عنهم في صفر الأصفار أو رجب

ومن الأمثلة كذلك نثر يحي بن محمد بن على بن محمد أبياتاً من الشعر في إحدى رسائله الاخوانية قائلا: وإن دعي بالسكيت، ولقد أسمعت لو ناديت حياً، وكيف بنطق من ميت[2]، ففي هذا ألفاظ محلولة من قول الشاعر عمرو بن معد يكرب.

لقد أسمعت لو ناديت حيّاً ولكن لا حياة لمن تنادي
ونار لو نفخت بها أضاءت ولكن أنت تنفخ في الرماد

ونثر الكاتب المذكور في نفس الرسالة قائلا: إن قارب طيراً أباحه منسراً كمنسر الأسد، أغلب فيه شفا كأنه عقد ثمانين في العدد، فينشده ألاَ عِم صباحاً أيها الطلل البالي، فلا يحس له بعي ولا آثر كيس الليالي) ففي ذلك ألفاظ محلولة من معقود بيت لأمري القيس وهو:

ألا عِمْ صَبَاحاً أيّهَا الطّلَلُ البَالي وَهل يَعِمنْ مَن كان في العُصُرِ الخَالي

([1])-ينظر، العماد الكاتب، الخريدة قسم شعراء الشام، 2/ 663

([2])-ينظر، القلقشندي، صبح الأعشى، 14/ 254.

رابعا، تضمين الأمثال:

التضمين هو: أن يضمن المتكلم كلامه بيتاً من الشعر، أو آية من كتاب من الله ، أو معنى من المعاني من كلام غيره، أو مثلاً سائراً، أو جملة مفيدة، أو فقرة من حكمة[1]، وقد أكثر الكتاب في هذا العصر من ذكر الأمثال وإيرادها بنصّها، أو الإشارة إليها في رسائلهم، ولاسيما الرسائل الاخوانية، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في رسالة لياقوت الحموي أثناء وصوله إلى الموصل فارّاً من التتار، حيث ضمنها أمثالاً كثيرة من ذلك قوله:" والمملوك مع ذلك يدافع الأيام ويزجيها ويعلل المعيشة ويزجيها، متقنعاً بالقناعة والعفاف، مشتملاً بالنزاهة والكفاف غير راضٍ بذلك السمل ولكن (**مكره أخاك لا بطل**) [2]، ومن الأمثلة كذلك ما ورد في رسالة إخوانية للأمير يغمر بن عيسى أوردها العماد في كتابه الخريدة قسم شعراء يقول فيها: ولقد استنفذت كل الجهود في بلوغ المقصود، فرأيت تحصيل (**الجار قبل الدار** الرفيق قبل الطريق) [3]، وكذلك ضمن يحيى بن محمد أمثالاً في رسالته المسماة النمس سنة 629 هـ بقوله: ولقد جهد في سلم الدهر، وهو يحاربه، وكيف توقى ظهر ما أنت راكبه؟ فما شام بارقة أمل إلاّ أخفقت و(**رجع بخفي حنين**)[4] و(**قرت أعين أعاديه**) [5]، وقال في موضع آخر من الرسالة نفسها: وهتف بشير النجح بمن أحيا ليلته، كما تمزق قميص اللي وأنفرى

([1])-ينظر، ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، ص 140.

([2])-الميداني، مجمع الأمثال، 2/ 318.

([3])-المرجع نفسه، 1/ 303.

([4])-المرجع نفسه، 1/ 296.

([5])-المرجع نفسه، 2/ 3.

و(**عند الصباح يحمد القوم السرى**)[1] وضمّن القاضي الفاضل أمثالاً في إحدى رسائله الديوانية منها قوله: ومن رجع إلى الإيراد بعد الإعلام و(**ليس الخبر كالعيان**) رجع أخصر من صفقة أبي غبشان"[2].

وحفلت رسائلهم بالكثير من الإشارات والتلميحات التاريخية، ومن الأمثلة على ذلك قول المهذب الدمشقي في رسالته المسماة النسر والبلبل: "ويعتقد أنّه بمثل ذلك لا يطالب، وعلى مثل ذلك لا يعاتب، هيهات أن سعداً لغيور، وأنّ الله لأغير من سعد، نامت عين الخليل فأمر بذبح إسماعيل، ونام يوسف متلقّياً لأسرار الغيوب، ففرق القدر بينه وبين يعقوب، ونام محمد صلى الله عليه وسلم فقيل له: يأيها المدثر قم فانذر نحن لا نرضى لبعض أصحابك بالمنام، فكيف نرضاه لك وأنت سيد الأنام[3] ومن الأمثلة كذلك ما ورد في رسالة إخوانية لابن منير الطرابلسي قوله:" وبعد فأنا يقطينة إن قلت أنك شيرازي الطينة، أو بغدادي المدينة بل عفريت سليمان القادر على إحضار الإيوان، وعبدك غرس إبليس، لا عرش بلقيس، ودق شبرا، ودمسيس لا دق تنيس"[4].

كان الكتّاب في هذا العصر يتصنعون لمصطلحات العلوم، ولاسيما علم النحو، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في رسالة لأبي القاسم الواسطي فيما أخذ على ابن النابلسي الشاعر قوله: "وبعد فإنّه لما أخرت الفضائل عن الرذائل، وقدّمت الأواخر على الأوائل، ونبذ عهد القدماء، وجهل قدر العلماء، وصار

([1])-المرجع نفسه، 2/ 182.

([2])-جلال الدين السيوطي، حسن المحاضرة، 2/ 19.

([3])-عماد الدين الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة أهل العصر قسم شعراء الشام، 1/ 353.

([4])-المرجع نفسه، 1/ 95.

عطاء الأموال باعتبار الأحوال لا باختبار الأقوال، وظهر عظيم الإجلال بالأسماء لا بالأفعال، علمت أن الأقدار هي التي تعطي وتمنع، وتخفض وترفع فأخملت عند ذلك من ذكري وقدري[1]، ومن الأمثلة على التصنيع لمصطلحات النحو قول محيي الدين بن عبد الظاهر في إحدى رسائله: وكيف لا يدخل عليك الاعتلال، وأنت وأخوك، وأبوك وفوك، وكل معتل وذو مال[2] ومن الأمثلة كذلك قول الفاضل في إحدى رسائله: وكفالتك للأمة بعده للمسرات ناظماً وللّمسات حاسماً، وللبركات جامعاً، وللباطل خافضاً، وللحق رافعاً.

خامسا، الجمل الدعائية والمعترضة:

حفلت الرسائل في مصر والشام بكثير من صيغ الجمل الدعائية التي تظهر الخضوع، والطاعة لله عز وجل، ورضا المخلوق عن حكم خالقه في كل شيء، أو الجمل الدعائية للخليفة أو السلطان بطول البقاء، أو قد يقصد منها تفسير عبارات سابقة، ومن الأمثلة على الجمل الدعائية للسلطان قول ابن عبد الظاهر: فليتقلد المقام الشريف العالي السلطاني- أعز الله نصره- عقد هذا العهد[3]، وقال في موضع آخر من التقليد نفسه "وللوقوف عند نهيه، وأمره في كل حكم وتصريف، فما زلت – خلد الله سلطانك- قائماً بسنته، وفرضه، ومن الأمثلة كذلك قول الحسن بن زيد الأنصاري: "الخدم، أطال الله بقاء الحضرة السامية، تتشرف بمن يليها، والمنازل تسمو بمن يكون فيها"[4] ومن الأمثلة كذلك على الجمل المعترضة التي يقصد بها تفسير عبارات سابقة ما ورد في

(1)-ينظر، ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 16/ 298.

(2)-ينظر، الصفدي، تمام المتون، ص 407.

(3)-ينظر، العماد الكتاب، خريدة القصر وجريدة أهل العصر قسم شعراء مصر، 2/ 74.

(4)-المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

الرسالة المصرية لأمية بن أبي الصلت قوله: وإذا كسر فتحت الترع، وهي فوهات الخلجان، ففاض الماء وساح، وعم الغيطان والبطاح[1] كذلك حفلت رسائلهم بضروب مختلفة من الصيغ، والعبارات التي تدل إلى إظهار الطاعة، والخضوع للسلطان وللحكام، فمن المعروف أن الملوك لا يُكتب إليهم إلاً بيُقبّل الأرض، أو الرسائل التي ترسل إلى الحكام بصفة عامة مثل قولهم: المملوك يقرر، المملوك يقبل الأرض، المملوك يهني، والخدم تقدم الخدمة، والألفاظ المماثلة لها، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في رسالة تهنئة من إنشاء الحسن بن زيد الأنصاري قوله: من هنيء بمنزلة يرتقيها، أو مرتبة يعتليها، فالخدم تهنّي بالحضرة لما يكسوها من جميل السيرة، والإنصاف الذي يتعادل فيه الجهر والسريرة، ومن رسالة تهنية للقاضي الفاضل قوله: المملوك يقبل الأرض بين يدي مولانا الملك الناصر، دام الله رشده وإرشاده، وكتب محيي الدين بن عبد الظاهر كذلك في جواب تعزية عن السلطان: المملوك يخدم الخدمة لا يذود المواصلة بها حادث، ولا يؤخرها عن وقتها أمر كارث.

سادسا، الإيجاز والأطناب:

جميع أنواع الرسائل في هذا العصر تطول وتقصر حسبما يقتضيه موضوع الرسالة، فظاهرة الإطناب تبدو واضحة في جميعها، وبخاصة الرسائل الديوانية منها، ومرد ذلك إلى الأسلوب المرصع السائد في ذلك الزمان، وهذا الأسلوب هو الذي دفعهم إلى الإسهاب وعدم الإيجاز، ويجد الدارس لهذا العصر أن ظاهرة الأطناب واضحة في معظم الرسائل الديوانية كرسائل العهود السلطانية، والمكاتبات في الفتوحات، والمخاطبات المبنية على إيصال المعاني إلى من يتصورها بأدنى إشارة، وما جرى هذا المجرى فإنّ فيها الإطالة، ومرد ذلك ترديد الألفاظ

[1]-ينظر، نوادر المخطوطات، عبد السلام هارون، ص 21.

المترادفة، والعناية بالشكل الخارجي للكلمة، ومن الأمثلة على الإسهاب والإطالة وعدم الإيجاز، رسالة كتبها العماد الكاتب بمناسبة فتح بيت المقدس جاء فيها قوله: " البُشرى بالفتح الأكبر، والنجح الأزهر، والنصر الأشهر، والعصر الأبهر، والفضل الأكثر، والأفضال الأوفر، واليوم الأنور، واليمن الأنظر، والفجر الأسفر، والفخر الأظهر، والجد الأشم الأشمخ، والمجد الأبلج الأبلخ، والعز الأسمق الأسمى، والنور الأنم الأنمى، والظفر الأجل الأجلى، والوطن الأحل الأحلى، والشرف الأسنم الأسنى، والعزم الأغنم الأغنى، والسعد الأجد الأجدى، والصيت الأبدي الأبدى، وهو الفتح الذي تفوح بمجابة مهابه الفتوح، وتبوح بسرّ روحه، وملكه سرائر الملائكة والروح"(1) فالعماد الكاتب يصف فتح بيت المقدس، والنصر الذي حققه المسلمون على الفرنجة بمعانٍ مكررة، وألفاظ مختلفة على الرغم من عنايته بالسجع والجناس.

وتتميز رسائل التوقيعات بالإيجاز الشديد، فهي لا تتجاوز كلمات عدة، أو عبارات قليلة، يوقع بها السلطان أو القائد على ما يرد عليه من شكاوى أو نحوها، ومن الأمثلة على ذلك ما وقع به السلطان نور الدين محمود على رقعة رفعت إليه مفادها: إن تاجراً ثرياً دخل حلب وتوفي بها، وترك ولداً صغيراً، ومالاً كثيراً ومن الأحسن له أن يرفع المال إلى الخزانة حتى يكبر الطفل فكتب نور الدين محمود على الرقعة: أما الميت فرحمه الله، وأما الولد فأنشأه الله، وأما المال فثمّره الله، وأما الساعي فلعنه الله(2).

---

(1)-العماد الكاتب، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 79.

(2)-أبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين، 1/ 13.

الاهتمام بالشكل

اعتنى أهل المشرق بالشكل عناية كبيراً، فزينوا الألفاظ، وزخرفوها بألوان من البديع وزينته ووشيه، وبالاسترسال في تكلفه وتصيده، فزخرفوا رسائلهم بالسجع والجناس، وبالمحسنات المعنوية مثل: الطباق ونحوه، فجاء أسلوبهم معقّداً تظهر عليه سمة الصعوبة، وغرابة الألفاظ إلاّ أن بعض الرسائل بالرغم من تزينيها بالزخارف اللفظية، والأصباغ الفنية جاءت ألفاظها سهلة معبرة بعيدة عن التعقيد، ومن الأمثلة على ذلك رسالة النسر والبلبل لمحمد بن حسان بن أحمد بن الحسن الخضر التي جاء في أولها قوله: " طار طائر عن بعض الشجر، وقد هب نسيم السحر، وانفلق عمود الفلق، وانخرق قميص الغسق، مشهور بالقسر، موسوم بالنسر"[1]، فالألفاظ سهلة والمعاني واضحة، وقد عبر بها الكاتب عما يجيش في خاطره من أحاسيس نحو هذا الطائر الصغير الحقير، ونجد رسالة أخرى لمحمد بن عبد الله بن محمد أبي المجد سهلة الألفاظ، واضحة المعنى منها قوله: الصنعة محكمة، والمرجمون كثير، والدلائل قائمة على الصانع، والسعادة، والشقاء سابقان، والفكرة حسيرة، والعاقل كالجاهل تحت القدر، والحريص تعب، وجماع الخيرات مراقبة الله، والشرع أولى متّبع، والخير حميد، والشر وخيم، وأخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم من اقتدي بها اهتدى، ونجا من الحيرة والضلال، وليس للعرض ثمن يكافيه، والسؤال ثمن النوال، وسعة

[1]-العماد الكتاب، خريدة القصر وجريدة أهل العصر قسم شعراء الشام، 1/ 355.

الأخلاق رحمة من الخلاق، والصبر عون حاضر، والقناعة ثروة لا تنفذ[1]، وتظهر الألفاظ سهلة واضحة في رسالة إخوانية أخرى لابن منير الطرابلسي منها قوله: " سلام عرقوب عليك يا أشعب، وأن أعيا جوابك وأتعب، وحياك الله أيها المعصب، أنضيتنا جداً، وأنت إلى السبق تلعب، أقسم بمفاتح الغيب، إنك مكبر شعيب بلا ريب"[2].

أوّلاً، السجع:

السجع: هو توافق فواصل الكلام المنثور على حرف واحد حيث يحسن النثر بتماثل الحروف في فصوله[3]، وقد اعتنى كتّاب هذا العصر بالسجع ليعطوا الخلافة والسلطنة أبهة ليضاهي النثر عزة أولي الأمر، وكان السجع أكثر المحسنات البديعية استخداماً في الكتابة حيث لم تخل منه خطبة، ولا رسالة ولا مقامة إلاّ وزيّنت بالسجع، ولفرط عنايتهم بهذا المحسن اللفظي ألّفوا في ذلك كتباً مسجوعة مثل: كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي للعماد الكاتب منه: قوله في وصف الفرنجة وعساكرهم: "قد سد طريق الفلق، فيْلقه الطارق، وزحف إلى الحق الثابت باطله الزاهق، وجال بالوجل وجاء بالوجيب، وثار لثار الصليب السليب، وقد جمر جمعه، ورتق فتق الصبح رقع نقعه، وما فض الفضاء ختام قتامه حتى خم على ضوء نهار الهدى ليل الظلام بظلامه"[4]، وكذلك كل كتابات العماد الأصفهاني مبنية على السجع من ذلك قوله في وصف السيد أبو

(1)-المصدر نفسه، 2/ 8.

(2)-المصدر نفسه، 1/ 92.

(3)-ينظر، عبد الله بن محمد الخفاجي، سر الفصاحة، ص 171.

(4)-العماد الكاتب، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 188.

الحسن علي بن أحمد بن عرام الربعي: شيخ من أهل الأدب يقيم بأسوان فوق قوص، ملك من الأدب الخلوص، ومن الشعر الخصوص، وعدم ظل فضله القلوص، وهكذا يمضي الكاتب في وصفه للشاعر بانياً أسلوبه على السجع الثقيل المتكلف، الموشى بالجناس الناقص، ومن الأمثلة على فن السجع كذلك قول الحسن بن زيد الأنصاري في كتاب تعزية بمقتول في الحرب: "الدنيا دار غرور وخدع، ومنزل زور وطمع، الموت أمر لازم، وحكم جازم يشمل النبيه والخامل، ويحطم الزج العامل، أكرم مصارع الرجال في معارك الأبطال"[1]، والرسالة كلها مسجوعة.

ومن رسالة النسر والبلبل للمهذب الدمشقي قوله: " فقال السلام عليك من طائر صغير حقير يظهر في صورة كبير خطير، وشاد ظريف طريف بغير أليف ولا حليف ذي جسم كأنّه سواد خال في بياض خد الحبيب، أو ظلمة حال المحب شاهد وجه الرقيب"[2] وهكذا يمضي الكاتب في النسج على هذا المنوال من السجع الخفيف الموشى بالجناس الناقص أحياناً.

أما بالنسبة للمقامات فقد ذكرت فيما سبق أنها مبنية على الصناعة اللفظية، كالسجع والجناس، ومن الأمثلة على السجع في المقامات مقامة للخطيب الحصكفي وهي مقامة مجنسة منها قوله: أنا شيخ قليل الهنات، استغني بكسب يدي، وأنفق على ولدي، وأراني قد عجزت عن العمل، وقصرت عن بلوغ الأمل،

([1])-العماد الكاتب، خريدة القصر وجريدة أهل العصر قسم شعراء مصر، 2/ 165.

([2])-العماد الكاتب، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 188.

وإن استرحت إلى الإخلال افتضحت بالإقلال، والفقر من حالفه هان، وعدِم البرهان[1]... إلى آخر النص.

وأما كتب الرحلات والتراجم فقد خلت من الأسلوب المنمّق المسجوع، والتزم كتّابها الأسلوب الحر الخالي من الجناس والسجع ما عدا كتاب الخريدة، فقد التزم صاحبه الأسلوب المسجوع الموشّى بالزخارف اللفظية والبديعية من ذلك أنّ قصة ألف ليلة وليلة تحرر كاتبها من ألوان السجع، والجناس في أغلبها، وربما يرجع ذلك إلى أنّها نسخت بعد هذا العصر بكثير، ومن الأمثلة على ذلك قول مؤلفها في وصفه للقصر الأبلق المار ذكره سلفاً: "ودخل مرعش، وغريب القصر الأبلق فرأيا حيطانه طوبة من الذهب، وطوبة من الفضة وأعتابه، وهو معقود بالزمرد الأخضر، وفيه فسقية وشاذوران مفروش بالحرير المزركش بشرائط من الذهب المرصّع بالجوهر[2]، ومن الأمثلة كذلك قوله في موضع آخر من القصة نفسها: وجرى للملك الناصر مع الإفرنج ما جرى من الوقائع، ونصره الله عليهم، وأسر جميع ملوكهم، وفتح بلاد الساحل - بإذن الله تعالى[3] إلاً أنّ حكايات طيف الخيال بتمثيلياتها الثلاث ألتزم كاتبها الأسلوب المسجوع في أغلبها.

(1)-أبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين، 2/ 58.

(2)-أبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين، 2/ 58.

(3)-قصة ألف ليلة وليلة، ص 1/ 488.

ثانياً، الجناس:

التجنيس: هو "أن يؤتى بكلمتين على لفظ واحد ولهما معنيان، أو على لفظ تتقارب حروفه، فمن التجنيس الذي يتفق لفظه ويختلف معناه"[1] وقد كان الجناس أكثر المحسنات اللفظية شيوعاً لدى عامة كتّاب هذا العصر، ولم تخل منه جميع كتاباتهم، ولفرط اهتمامهم به جانسوا حتى في أسماء مؤلفاتهم على نحو ما رأيناه في مؤلفات العماد الكاتب، وعند غيره مثل: كتاب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، والروضتين في أخبار الدولتين وغير ذلك كثير، ومن الأمثلة على الجناس قول الحسن بن زيد الأنصاري في رسالة بشارة بفتح: "أعز الله سلطان الحضرة، وهنأها ما منحها من الشرف الأثير، والذكر النابه الخطير من الظفر بالفلانيين على اشتداد أسرهم، واستفحال أمرهم، وانبساط برهم، وتكاثر عددهم"[2] فجانس الكاتب جناساً ناقصاً بين الألفاظ: الأثير والخطير، أسرهم وأمرهم، ويدهم وعددهم، ولم يكتف اهتمامهم بالجناس العادي البسيط بل تعداه إلى الجناس المعكوس، ومن الأمثلة على ذلك قول القاضي الفاضل:الحمد لله الذي صدق وعده، وأورثه الأرض وحده، وجدد علاه وأعلى جدّه، أسعد نجمه وأنجم سعده، ووعده نجحه وأنجح وعده، وأورده وصفه وأصفى ورده، فجانس الكاتب جناساً معكوساً بين الألفاظ: جدد علاه، وأعلى جده، وأسعد نجمه، وأنجم سعده.. إلى آخره.

(1)-علي بن خلف، مواد البيان، ص 232.

(2)-العماد الكاتب، خريدة القصر وجريدة أهل العصر قسم شعراء مصر، 2/ 77.

أمّا الحكايات والقصص فلم يلتزم كتّابها بالأسلوب المسجوع المليء بالجناس من ذلك أنّ قصة ألف ليلة وليلة خلت من الأسلوب المسجوع الموشّى بالجناس غير أنّ ابن دانيال صاحب حكايات طيف الخيال التزم بالأسلوب المرصع المليء، من ذلك قوله: "سلام على من حضر مقامي، وسمع كلامي، من عرفني فقد تمتّع بأنسي، ومن جهلني فأنا أعرّفه بنفسي، أنا الأمير وصال صاحب الدبوس، والناموس، والكابوس، والسالوس، أنا ملاكم الحيطان، أنا محبط الشيطان، أنا أنهش من ثعبان، وأحمل من قبان، أنا أنطح من كبش وأنتن من وحش"[1] جانس ابن دانيال جناساً ناقصاً بين الألفاظ: مقامي وكلامي، أنسي ونفسي، الدبوس والناموس، والكابوس والسالوس، الحيطان، والشيطان، ثعبان وقبان، كبش، ووحش، وحتى رسائل المناظرات لم تخل من الجناس بأنواعه المختلفة، ومن الأمثلة على ذلك قول زين الدين ابن نجا في تفضيل مصر على الشام: " ومرتقى الهرمين، وروضة جنانها وجنة رضوانها، ومساجدها وجوامعها، ومشاهدها ومرابعها، ونواظر بساتينها، ومناظر ميادينها"[2].

ثالثاً، الازدواج:

الازدواج: سمة خرافية استخدمها الكتّاب، والأدباء لتنميق عباراتهم، وتزيين ألفاظهم، وهو أحد أقسام السجع، والكتّاب المشارقة لم يلتزموا في كتاباتهم حرفاً معيّناً واحداً في جميع فواصل الجمل والعبارات، وإنّما كانوا ينوّعون بين حروفها، فإذا كان هذا التنويع على سجعتين متساويتين في الأجزاء

([1])-عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي 3/ 710

([2])-أبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين، 2/ 57.

كان ذلك ازدواجاً، وهو أشرف السجع منزلة للاعتدال الذي فيه، وقد عَدّه أبو هلال العسكري من الصفات المحمودة في النثر بقوله: "لا يحسن منثور الكلام، ولا يحلو حتى يكون مزدوجاً، ولا تكاد تجد لبليغ كلاماً يخلو من الازدواج، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القران؛ لأنّه في نظمه خارج من كلام الخلق، وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل في أوساط الآيات فضلاً مما تزاوج في الفواصل منه"[1] وتظهر سمة الازدواج واضحة في الرسائل الإخوانية، ورسائل الوصف وما شابهها، ومن الأمثلة على الازدواج قول القاضي الفاضل في وصف نهر النيل: " نعم الله سبحانه وتعالى من أضوئها سبوغاً، وأصفاها ينبوعاً، وأسناها منفوعاً، وأمدها بحر مواهب، وأختمها حسن عواقب"[2] ومن الأمثلة على الازدواج كذلك قول صفي الدين عبد الله بن علي بن عبد الخالق بن شكر في وصف مدينة دمشق: "ظلها الممدود، ومقامها المحمود، وماؤها المسكوب، وعيبها المسلوب، ومحاسنها المجموعة، وفضائها الروية المسموعة، ودرجتها المرفوعة"[3].

فقد زواج الكاتب بين الألفاظ: ظلها الممدود ومقامها المحمود، ومائها المسكوب وعيبها المسلوب... الخ، ومن الازدواج كذلك ما ورد في رسالة معاشرة الإخوان وتعب الزمان ليغمر ابن عيسى: "زهت أزهارها، وبهر بهارها،

([1])-أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 285.

([2])-جلال الدين السيوطي، حسن المحاضرة، 2/ 366.

([3])-أبو شامة المقدسي، الروضتين، 2/ 59.

وأنار نوارها، مهتزة أعطافها، معتزة أطرافها، صافية نطافها، ضافية أريافها، نظرة أكنافها، عطرة أردافها"[1].

رابعاً، رد العجز على الصدر:

رد العجز على الصدر هو: "أن يجعل أحد اللفظين المكررين في أول الفقرة، ويجعل اللفظ الآخر منهما في آخر تلك الفقرة"[2].

ورد العجز على الصدر من ضمن المحسنات اللفظية التي اعتنى بها الكتّاب والأدباء في مختلف ألوان كتاباتهم إلا أن عنايتهم بها كان أقل من المحسنات البديعية الأخرى، ومن الأمثلة على ذلك قوله العماد الأصفهاني في صدر رسالة له بمناسبة وصول الجيش المصري إلى الشام: "ظهر يوم الخميس متظاهراً بإمداد الظهور متوافراً بوفود الوفور"[3].

فقد رد الكاتب العجز الظهور على الصدر ظهر، وكذلك رد العجز الوفور على متوافر، ومن الأمثلة على رد العجز على الصدر كذلك قول القاضي الفاضل في إحدى رسائله: "ما أحرى العبد بمباهاة الأحرار، وأبره بمضاهاة الأبرار لقد أرضى بفواضل مولاه على أرباب الفضائل"[4].

(1)-العماد الكاتب، خريدة القصر وجريدة أهل العصر قسم شعراء الشام، 1/ 366.

(2)-بدوي طبانة، معجم البلاغة العربية، 1/ 292.

(3)-العماد الكاتب، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 189.

(4)-العماد الكاتب، خريدة القصر وجريدة أهل العصر قسم شعراء مصر، 1/ 47.

المضمون

لم يحفل كتّاب مصر والشام بالمضمون، وإنّما أنصب جل عنايتهم على الشكل، فالألفاظ عندهم قبل المعاني، والعناية باللفظ يجب أن تكون عماد الكلمة، وسر جمالها، والمعاني تلي الألفاظ في المنزلة، وأصبحت الثروة عند الأديب لفظة، وجمال الأسلوب الأمر الذي أدّى إلى ضعف الثقافة، وقلّة محصولها، وكذلك من حيث الصور والأخيلة كان محصولها قليلاً، وكان الجديد منها نادراً ضئيلاً، وعلى الرغم من ذلك فقد جاءت بعض الرسائل تعجّ بصور متحركة، وأخيلة جميلة، ومن أمثلة ذلك قول القاضي الفاضل في وصف النيل: "وأما النيل فقد امتدت أصابعه، وتكسرت بالموج أضالعه، ولا يعرف الآن قاطع طريق سواه، ولا من يرجى ويخاف إلا إيّاه"[1] فقد حمل النص على الرغم من قصره عدداً من الصور الاستعارية التي شخص فيها القاضي الفاضل النيل في صورة إنسان يمد أصابعه، وقد كسرت الأمواج ضلوعه، ولا يكتفي بذلك بل جعله قاطع طريق والناس تخافه وتخشاه ومن الأمثلة كذلك على الرسائل ذات الصور والأخيلة قول ابن الأثير في كتاب تهنئة بالعيد " يوم العيد هو سيد الأيام المحبو بينها بمزية الإكرام الذي تمثل جسماً، والسرور روحه، وبالأرواح قوام الأجسام، وقد أطل على الناي يقلب طرفه في من يستحق أن يكون خليلاً، أو يكون له نزيلاً، فوقع نظره على المجلس السامي المولوي أنس الله له شعباً"[2] ومن الأمثلة

([1])-جلال الدين السيوطي، حسن المحاضرة ، 363/2.

([2])-ابن الأثير، رسائل ابن الأثير، ص 86.

ذلك قول نصر الله بن عبد الله بن على بن الأزهري، المعروف بابن قلاقس في وصف مركب وأهله: " ثم إنّ البحر تخبطه شيطان الموج، فلو رأيته، وقد شاب في عنفوان شبابه، وشابه فروع الأطواد بأصول هضابه، والحنية تدوي بأهلها كالخلية بنحلها"(1) ومن الأمثلة كذلك على الصور والأخيلة ما ورد في كتاب لابن الأثير في وصف معركة قوله: " ولما التقى الجمعان اصطفت يمين وشمال، وزحفت جبال على جبال، وكثرت النفوس على المنايا حتى كادت لا تفي بالآجال، وأقدمت الخيل إقدام فرسانها، وأظلم النقع فلا تبصر إلاً بآذانها، ونالت النحور ثأرها من كعوب الرمال، واشتكت الأسنة، فلا طريق بينها لمهب الرياح، واستولت شجرة الكافرين بالقطع"(2).

---

(1)-العماد الكاتب، خريدة القصر وجريدة أهل الغصر قسم شعراء مصر، 151/1.

(2)-ابن الأثير، المثل السائر، 114/1.

المحسنات المعنوية

أولا، الطباق:

اعتمد كتّاب مصر والشام على المحسنات البديعية، وبخاصة الطباق لتنميق عباراتهم، وإظهار عواطفهم، ولغرض إبراز المعنى، وقد أجمع العلماء على أن الطباق هو: "الجمع بين الشيء وضده في جزء من أجزاء الرسالة، أو الخطبة، أو البيت من أبيات القصيدة مثل الجمع بين البياض والسواد، والليل والنهار، والحر والبرد"[1] وهو مأخوذ من قولهم طابق البعير في سيره إذا وضع رجله موضع يده، وهو راجع إلى الجمع بين الشيئين، ومن الأمثلة على الطباق قول الحسن بن زيد الأنصاري في رسالة تهنئة بالشفاء من المرض لصديق له: "وصار المتعاقدين على الإيثار، والمتحابان على بعد الدار مساهمين فيما ساء وسر، ومتشاركين فيما نفع وضر، وتلك حالي وحال حضرة مولاي، فإنّي وإياها كنفس قسمت على جسمين، وروح فرقت بين شخصين، فأما ألمها فقد مضى وأزعجني، وأما برءها فقد سرني وأبهجني"[2].

طابق الحسن بن زيد طباق إيجاب بين الألفاظ، ساء وسر، نفع وضر، ألمها وبرءها، أزعجني وأبهجني، ومن الأمثلة على الطباق في الرسائل الأخوانية ما ورد في رسالة القاسم بن القاسم الواسطي فيما أخذ على ابن النابلسي الشاعر في قصيدة نظمها في مدح الإمام الناصر لدين الله العباسي قوله "علمت أن الأقدار

(1)-أبو الهلال العسكري، الصناعتين، ص 371.

(2)-ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 298/16

هي التي تعطي وتمنع، وتخفض وترفع، فأخملت عند ذلك من ذكري وقدري"(1) طابق الكاتب بين الألفاظ طباق إيجاب، تعطي وتمنع، تخفض وترفع، ومن الأمثلة على طباق السلب قول القاضي الفاضل في رسالة ديوانية كتبها سنة 583 هـ، مستيقظ النصر، والسيف في جفنه راقد، وارد الجهود والسحاب على الأرض غير وارد.

طابق القاضي الفاضل طباق سلب بين الألفاظ، وارد وغير وارد، ومن الأمثلة على طباق السلب كذلك قول ابن الأثير في رسالة تهنئة بالعيد: فليسمع المولى ما يورده من كلمات سجد لها الكلم وتركع، وتقرع الأسماع في ورده، وكأنها لم تركع.

ثانيا، المقابلة:

من المحسنات المعنوية التي اعتنى بها كتّاب هذا العصر لغرض إبراز المعنى، وتنميق عباراتهم وتزيينها بألوان الزخارف البديعية المقابلة التي هي: إيراد الكلام، ثم مقابلته بمثله في المعنى، واللفظ على جهة الموافقة، أو المخالفة(2)، وعلى هذا تكون المقابلة قريبة المعنى من المطابقة، ومن الأمثلة على المقابلة كتاب بعث به صلاح الدين الأيوبي إلى ديوان الخلافة ببغداد من إنشاء القاضي الفاضل سنة 583 هـ جاء فيه قوله: " ويحصد منها كفراً ويزرع إيماناً، ويحط من منائر جوامعها صلبانا، ويرفع أذاناً، ويبدل المذابح منائر، والكنائس

(1)-القلقشندي، صبح الأعشى، 282/8.

(2)-أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 339.

مساجد، ويبوئ بعد أهل الصلبان أهل القرآن للذب عن دين الله مقاعد، ويقر عينه، وعيون أهل الإسلام أن تعلق النصر منه، ومن عسكره بجار ومجرور"[1].

قابل الكاتب بين جملتي يحصد كفراً، ويزرع إيماناً كما قابل بين يحط من منائر جوامعها صلباناً ويرفع أذاناً، ومن الأمثلة على المقابلة كذلك قول ابن عبد الظاهر في إحدى رسائله الديوانية: فما من حصن استغلقه الكفر إلا وسيفه مفتاحه، ولا ليل خطب دجا، وعزته الميمونة صباحه، ولا عز أمل لأهل الإسلام إلا وكان في رأيه المسدد نجاحه، ولا حصل خلل في طرف من المماليك إلا وكان بمشيئة الله تعالى وبسداد تدبيره صلاحه[2] فقابل محي الدين بين جملتين هما، حصن استغلقه الكفر، وسيفه مفتاحه، وكذلك قابل بين ولا ليل خطب دجا، وعزته الميمونة صباحه.

ثالثا، التورية:

التورية من المحسنات البديعة التي استخدمها كتّاب مصر والشام خلال هذين القرنين ممن جاءوا بعد القاضي الفاضل. قال ابن حجة الحموي:" وصار لها من بعده في نظم التورية أعظم روّية، وقدمت الذي صلت الجماعة خلفه، وهو القاضي الفاضل"[3].

والتورية هي: أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان حقيقيان، أو حقيقة، ومجاز أحدهما قريب المعنى، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية، فيريد

(1)-القلقشندي، صبح الأعشى، 286/8.

(2)-ينظر، المرجع نفسه، 21/10.

(3)-ابن حجة االحموي، خزانة الأدب وغاية الأرب، 107/2.

المتكلم المعنى البعيد، ويوري عنه بالمعنى القريب، فيتوهم السامع أول وهلة أنه يريد المعنى القريب، وليس كذلك، وقد ظهرت التورية في الأدب العربي، وأصبحت من خصائصه، ومن الأمثلة على التورية قول محيي الدين بن عبد الظاهر في إحدى رسائله الديوانية: "وكم شكت منه تثني بذكرها قلة الإنصاف، وكم خافته معرة، وما من معرة خاف ما زالت أيدي الممالك تمتد إلى الله بالدعاء عليه، تشكو من جور جواره تلك الحصون والصياصي، وتبكي بمدمع نهرها من تأثير أثاره مع عصيانها، وناهيك بمدمع العاصي حتى نبه الله ألحاظ سيوف الإسلام من جفونها"[1].

ورّى ابن عبد الظاهر في كلمة معرة، كما ورّي في كلمة العاصي حيث أراد المعنى البعيد، وهو الإشارة إلى نهر بالشام يعرف بنهر العاصي، وليس الصفة، وقال محيي الدين بن عبد الظاهر في رسالته الإخوانية المسماة التواضع:" ولا يغير الزناد قدح القادح كما أنّه لا يضير النجم الساري نبح النابح"[2] فورّى ابن عبد الظاهر في كلمة قدح القادح مع ذكر الزند الواري، فلم يرد قدح القادح للزند طلباً لإخراج النار منه، وإنّما أراد ذم الهاجي من قولهم قدح في عرض أخيه إذا عابه.

([1])-القلقشندي، صبح الأعشى، 355/7.

([2])-الصفدي، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، ص 405.

التعقيد اللفظي

التعقيد اللفظي هو: أن تكون الألفاظ وعرة متعسفة متكلّفة متوعّرة، لا تدل على المعاني التي تحتها إلا بعد فحص طويل وبحث دقيق[1] فهو ضد اليسر والسهولة، ونقيض الفصاحة والبيان، وقد أخذ كتّاب هذا العصر بالأسلوب المسجّع المتكلّف المليء بالسجع والجناس، وبألوان البديع الأخرى، لذلك سأتكلم عن أهمّ الأسباب التي أدّت إلى هذا التعقيد والغموض:

أولا، الإسهاب والتطويل والحشو:

مال معظم كتّاب وأدباء مصر والشام خلال هذين القرنين إلى الأسلوب المرصع الملئ بالأخبار، والروايات، والتضمين، والاقتباس من القرآن الكريم، ومن الحديث النبوي الشريف، وتضمين أطيب وأجمل أبيات الشعر العربي، وحلّ منظوم القصيد، ونثر الأمثال، وقد أدى ذلك إلى الإسهاب، والتطويل، والحشو الزائد، والغموض في المعنى.

ثانيا، العناية باللفظ دون المعنى:

كان الأدباء والكتّاب يعتنون باللفظ، فصبوا جلّ عنايتهم على الشكل، وزيّنوا الألفاظ بألوان البديع، وزخرفوها بالجناس، والسجع وأنواع البديع الأخرى، فالألفاظ تأتي عندهم في المرتبة الأولى لذلك نراهم يكثرون من الألفاظ على المعنى اليسير، وقد درج على ذلك معظم كتّاب هذا العصر، وأمّا المعاني فقد

---

(1)-علي بن خلف الكاتب، مواد البيان، ص 371.

أتت في المرتبة الثانية، وكذلك استخدموا مصطلحات العلوم الأمر الذي زاد الأسلوب غموضاً وتعقيداً.

ثالثاً، الإغراق في استخدام المحسنات البديعية:

اعتنى كتّاب مصر والشام بالمحسنات البديعية من سجع وجناس ونحوه، وأسرفوا في ذلك إسرافاً كبيراً حتى خرجوا عن الحد المقبول، وتجاوزوا الحد المعقول، فجاء أسلوبهم متكلّفاً صعباً في أغلب الأحيان.

الخاتمة

نستخلص مما تقدّم ما يأتي:

1- إنّ الحياة الثقافية والفكرية في مصر والشام نشطت نشاطاً ملحوظاً خلال هذين القرنين حيث تمّ تشييّد العديد من المساجد ودور العلم التي قامت بدور كبير في نشر العلم والمعرفة إضافة إلى دورها الديني، وظهرت في هذا العصر كذلك المدارس ودور الأطفال التي انتشرت بسرعة، وبشكل كبير بالرغم من التقلبات السياسية التي شهدتها المنطقة، وقامت مجموعة الدويلات المتتابعة التي عُرف بها هذا العصر، والحروب الصليبية والصراعات الدائرة آنذاك، وانقسم الشعب إلى طبقات أو طوائف وفقد أهم ثروات بلاده، وقد كثرت المدارس حتى فاقت الحصر، فأدّت هذه المدارس دوراً مهمّاً في إرساء معالم الثقافة الأمر الذي أدى إلى الارتقاء بمستوى الحياة الثقافية والفكرية في هذين البلدين المشار إليهما، وظهرت كذلك في هذا العصر المدارس المتخصصة مثل: مدارس الطب والهندسة التي تخرّج فيها العديد من الأطباء والمهندسين الذين ما تزال أسماؤهم تلمع في مختلف ميادين العلم والمعرفة.

2- اعتنى حكّام هذه الحقبة بديوان الإنشاء الذي كان له فضل كبير في الحفاظ على اللغة العربية وآدابها، وإحياء التراث العربي؛ لأنها اللغة السائدة في جميع دواوين الدولة.

3- أنّ هذا العصر ليس عصر انحطاط، ولا عصر جمود كما يقال عنه بل على العكس من ذلك فقد ازدهرت الحياة الثقافية والفكرية ازدهاراً عظيماً يشهد على ذلك ما خلّفه الأدباء والكتّاب في هذا العصر من نتاج ثقافي وفكري ما يزال بعضه مخطوطاً تزخر به شتى المكتبات في جميع أنحاء العالم، وهي خير دليل على عظمة هذا العصر، وعظمة نتاجه الثقافي والعلمي يضاف إلى ذلك ما طُبع وحُقق من مؤلفات ومصنفات.

4- أنّ الطابع العام للنثر تأثره بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وغلب عليه الأسلوب المسجوع المرصّع بالأخبار والحكايات والأمثال وحلّ منظوم القصيد، وما إلى ذلك من التلميحات والإشارات التاريخية.

5- غلب على فن النثر الصنعة البديعية فأغلب كتابات هذا العصر مليئة بالجناس، والسجع، والزخارف اللفظية، والمحسنات البديعية التي تعد أهم ما يميز هذه الحقبة عن غيرها من العصور، وكان أغلب الأدباء، والكتّاب يتصنّعون في كتاباتهم على رأسهم شيخي الصنعة البديعية القاضي الفاضل، والعماد الكاتب، وقد تبعهم في ذلك عدد كبير من أدباء وكتّاب هذا العصر.

6- أنّ الخصائص الفنية للنثر لا تختلف من كاتب إلى آخر لأنهم يعيشون تحت مؤثرات أدبية واحدة، وبيئة جغرافية واحدة، ولا توجد فواصل طبيعية تمنع تنقّل هؤلاء الأدباء والكتّاب بين البلدين.

7- أنّ نقاد هذا العصر كانوا يستحسنون الأسلوب المرصع كما كانوا يستحسنون العناية بالشكل ولا يهتمون بالمعنى، فاللفظة أوّلاً والمعنى ثانياً لذلك لجؤوا إلى الزخارف البديعية والمحسنات البديعية.

فهرس المصادر والمراجع

أوّلاً، القرآن الكريم برواية حفص

1- أبو بكر بن علي بن حجة الحموى، خزانة الأدب وغاية الأرب، شرح عصام شعيتو، دار مكتبة الهلال، بيروت.

2- أبو بكر علي بن محمد بن حجة الحموي، ثمرات الأوراق، تحقيق محمد أبو الفضل، منشورات دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية 1987م.

3- أبو الحسن ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت الطبعة الثالثة 1980م.

4- أبو الحسن محمد أحمد بن جبير، رحلة ابن جبير، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت 1964م.

5- أبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين، دار الجبل، بيروت.

6- أبو شامة المقدسي، ذيل الروضتين، تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجريين، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية 1974م.

7- أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، الطبعة الأميرية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة.

8- أبو عثمان عمرو بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، منشورات مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الخامسة 1985م.

9- أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، مكتبة المعـــارف، بيروت، مكتبة النصر، الرياض، الطبعة الأولى 1966م.

10- أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني، مجمع الأمثال، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار القلم، بيروت.

11- أبو الفضل كمال الدين بن جعفر الأدفوي، الطـــالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد طه وطه الحاجري، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

12- أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية بيروت.

13- أبو منصور عبد الملك الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق مفيد محمد قميجة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1983م.

14- أبو هلال العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر، دار الكتب العلية، بيروت الطبـــعة الأولى 1981م.

15- أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العربي، دار نهضة مصر للطبـــاعة والنشر القاهرة.

16- أحمد بدوى، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الثانية .1979

17- أحمد بدوي، الحيـــاة العقلية في عصر الحروب الصليبية في مصر والشام، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة.

18- أحمد شلبي، التربية الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة السابـــعة 1982م.

19- أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، دار نهضة مصر، الفجالة القاهرة، الطبعة الرابعة 1972م.

20- أسامة بن منقذ، الاعتبار، حررة فيليب حتى مطبعة برنستون الولا يات المتحدة الأمريكية 1930م.

21- إسماعيل باشا البغدادي، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء علوم الدين، بيروت.

22- إسماعيل باشا البغدادي، هبة العارفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

23- إيليا حاوي: فن الخطابة وتطورها عند العرب، دار الثقافة، بيروت.

24- بهاء الدين بن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى 1964م.

25- تقي الدين أبو العباس أحمد المقريزي، المواعد والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية)، دار صادر، بيروت.

26- جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، منشورات مكتبة الحياة، بيروت 1973م.

27- جلال الدين السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبــو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، الطبعة الأولى 1968م.

28- جمال الدين يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، القاهرة.

29- حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، المطبعة البهية، اسطنــــبول 1360 هـ

30- حسن شيماني، مدارس دمشق في العصر الأيوبي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى 1983م.

31- خليل أيبك الصفدي، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم المكتبة المصرية، بيروت.

32- خير الدين الزركلي، الأعلام، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة.

33- زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، دار الجيل، بيروت 1973م.

34- زين الدين عمر بن الوردي، تتمة المختصر في أخبار البشـــــر أحمد البدراوي، دار المعارف بيروت، الطبعة الأولى سنة 1970م.

35- شهاب الدين أحمد النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، القاهرة.

36- شمس الدين أبو القاسم أحمد محمد بن خلّكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.

37- شمس الدين محمد بن عثمان الذهبي، العبر في خبر من غبر، تحقيق صلاح المنـــجد، مصورة عن مطبعة حكومة الكويت، الطبعة الثانية 1989م.

38- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات مصر، دار المعـــارف، القاهرة الطبعة الثانية 1990م.

39- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الحـــادية عشر 1990م.

40- صدر الدين علي بن ناصر الحسني، أخبار الأمراء والملوك السلجوقـــية، دار اقرأ، بيروت، الطبعة الثانية 1986م.

41- صدر الدين علي بن ناصر الحسني، أخبار الدولة السلجوقية، تحقـيق محمد إقبال، دار الأفاق الجديدة، بيروت.

42- صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، نكت الهميان في نكت العميان، مكـــتبة المثنّى، بغداد، 1911م.

43- صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، باعتناء هلموت رنسر، دار فرانل شتاير، شتوتغارت، 1991م.

44- ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمـــد الحوفي وأحمد بدوي طباعة دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة.

45- ضياء الدين بن الأثير، رسائل ابن الأثير، تحقيق أنيس المقدسي، المجمع العــــلمي العراقي، دار العلم للملايين، بيروت 1959م.

46- دار الكتب العلمية، ألف ليلة، دار صادر، بيروت.

47- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار العودة، بيروت.

48- عبد الرحمن بن علي بن شيث القرشي، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، تحقيق محمد حسين الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1988م.

49- عبد القادر النعيمي الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى 1990م.

50- عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية في مصر والشام في العصرين الأيوبي، والمملوكي الأول، مطبعة الفرجاني، طرابلس ليبيا.

51- عبد اللطيف حمزة، أدب الحروب الصليبية، دار الفكر العربي بيروت، الطبعة الثانـــية 1984م.

52- عبد الحي بن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت.

53- علي بن خلف الكاتب، مواد البيان، تحقيق حسين عبد اللطيف، منشورات جامعة طرابلس مطبعة الإنشاء، دمشق، 1982م.

54-علي بن سلطان بن محمد، شرح مسند أبي حنيفة، تحقيق الشيخ خليل محيي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1986م.

55- علي بن منجب الصيرفي، الأفضليات، تحقيق وليد قصاب وعبد العزيز المانع، مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق سوريا 1982م.

56- عماد الدين الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة أهل العصر، قسم شعراء مصر، تحقيق شوقي ضيف، وإحسان عباس، وأحمد أمين، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة 1951م.

57- عماد الدين الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة أهل العصر، قسم شعراء الشام، تحقيق شكري فيصل، المكتبة الهاشمية، دمشق 1955م.

58- عماد الدين الأصفهاني، أبي الفداء: المختصر في أخبار البشر، دار الفكر، ودار البحار، بيروت.

60- عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

61- عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة 1979م.

62- عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، دار الفكر المعاصر، بيروت دمشق، الطبعة الأولى 1989م.

63- عمر موسى باشا، تاريخ الأدب العربي في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر بيروت ودار الفكر دمشق، الطبعة الثالثة 1989م.

64- فاروق سعد، قراقوش ونوادره القسم الثاني الفاشوش في أحكام قراقوش، دار الأفاق، بيروت.

65- قدري قلعجي، صلاح الدين الأيوبي، قصة الصراع بين الشرق والغرب خلال القـرنين الثاني والثالث عشر الميلادي، دار الكتاب العربي، 1966م.

66- كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة رمضان عـبد التواب، دار المعارف، الطبعة الثانية 1977م.

67- محمد زغلول سلام، الأدب العربي في العصر الأيوبي، منشورات دار المـعارف، الإسكندرية مصر.

68- محمد زغلول، الأدب العربي في العصر الفاطمي الكتـابة والكتّاب، منشأة المعارف، الإسكندرية مصر 1990م.

69- محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، دار المعارف الإسكندرية، مصـر، الطبعة الثالثة 1984م.

70- محمد سعيد الكيلاني، الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام، دار الفرجاني، طرابلس ليبيا، 1984م.

71- محمد شاكر الكتبي، فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، وزارة الثقافة، بيـروت 1973م.

72- محمد عبد الغفور صدر الدين الإشبيلي، أحكام صنعة الكلام، تحقيق محـمد رضوان الدايه، دار الثقافة بيروت 1966م.

73- محمد عبد المطلب مصطفى، اتجاهات النقد خلال القرنين السادس والسابع الهجريين في مصر والشام، دار الأندلس، الطبعة الأولى 1984م.

74- محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية بعد سقوط بغداد حتى العصر الحـــديث، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى 1990م.

75- محمد عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنووط، ومحمد نعـــيم العرقوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية 1982م.

76- محمد كامل حسين، الحياة الفكرية والأدبية في مصر من الفتح العربي إلى آخر الدولة الفاطمية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

77- محمد كامل حسين، في أدب مصر الفاطمية، الإدارة العامة للثقافة، وزارة التعليم العالي، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الثانية 1963م.

78- محمد كامل الفقي، الأدب العرب في العصر المملوكي، دار الوقف العربي، بيروت.

79- محمد كرد علي، خطط الشام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية 1970م.

80- محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكـــتبة الآداب القاهرة.

81- محمود مصطفى، الأدب العربي في مصر من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصـــر الأيوبي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1967م.

82- مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت الطبعة الثانية 1974م.

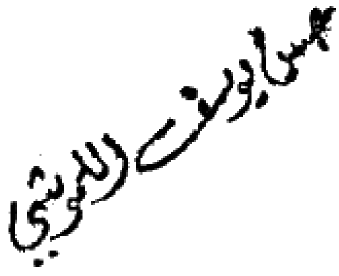
83- محيي الدين بن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقـــيق ونشر عبد العزيز الخويطر، الرياض السعودية، الطبعة الأولى 1976.

84- محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت.

85- مجدي وهبه وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، الطبعة الثانية، 1984.

86- هادي حسين هادي، المقامات من ابن فارس إلى بديع الزمان، دار الأفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى 1976.

87- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، دار إحياء التراث العربي، بيروت.



فهرس الموضوعات



الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE